

# المبحث الثالث

## التعليم

مَيَّرَ اللهُ تعالى الإنسان بقوتين جليلتين

(١) القدرة على اختبار الأمور بنفسه ، واستنباط الضوابط

ذات الخير والشرّ منها

(٢) القدرة على سَبْرِ غَوْرِ الأعمال التي نسج على منوالها

الخطايا والمعاصرون والسالفون ؛ والسعي في محاكاة ما طأه لرقى  
الشئون الاجتماعية .

فالقوة الأولى يشارك الحيوان الراقى الإنسان فيها من بعض

الوجوه . وأمّا الثانية فهي حبس على الإنسان ، يستفيد بها مطالبه

من طريق التكلم مع المجربين ، وقراءة سيرهم ، والاسترشاد بنصائح

المؤدبين ، والتخلق بهديهم .

إنّ السعيد له في غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر

من أجل هذا اهتمت كل أمة بسنّ أنظمة تلائم عاداتها .

ومنذ فطر الله الإنسان على الاجتماع لا تزال القراءة والكتابة

والحساب أساساً للتعليم .

يبتدئ الطفل فيتعلم لغة أبويه وخطأته والمستوطنين بلده ؛

ويستفيد من مجرباتهم ؛ ويتحوّل إلى منْظَمةٍ أوسع يتعلّم فيها اللغات التي جال أهلها في سبيل الحياة ، ليكون له بالعقول الراجعة صلة . فتتسع ميادين اختباره ، وتمتدُّ آفاق نظراته ، وتغزير ينابيع معارفه .

وقد كلف المعلم تهذيب الطفل ؛ وألزم تغذيته بالعلوم والآداب ؛ وحمل عبء التبعة كلها للوصول به إلى شاطئ السلامة كاملاً . حتى لقد غلا هربارت<sup>(١)</sup> فادّعى أن في استطاعته وحده أن يصيِّره نابغة أو عبقرتاً . فهذا مسلمٌ إذا وجد لدى الطفل استعداد للفهم والحفظ والذكر . وماذا عسى أن يبلغه المعلم القدير ، إذا فقد الطفل هذه المواهب ؛ والنسيان وحده آفة طائفة تعارض قوانين التعليم وتحمل عراه . ومن يشترط في المعلم الجدارة ويلقّت نظره عن الاستعداد الفطريّ للطفل فقد شطّ عن الصواب ؛ وربما غلبه في حكمه هذا نبوغه في إبان طفولته ، فيتخذ من نفسه مقياساً وينبرى للمناضلة به . ومن يجرّد نفسه من ذخائر الحفظ والذكر ، ثم يأخذ مجلسه بين المتكلمين أو الكتابين ، لا يجد شيئاً يستمدّ منه في الأمرين .

إليك الفراشة ، يؤثر ضوء المصباح في بصرها ، فتأثّر أعصاب الحركة عندها ، وتسمى للاقتراب من الضوء . وما تليس اللهب حتى تحسّ ألم الاحتراق فترتدّ ناكصة . ثمّ يؤثر الضوء ثانياً في بصرها ،

مثال لضعف الحفظ والذكر

(١) هربارت توفي سنة ١٨٤١ ألماني عاصر أستاذه بستالوتزي وبرز في الحكمة

والرياضيات والطبيعات ، له آراء في التعليم وطرق جديدة عوّّل عليها المربون

فتنسى ما اختبرته أولاً ، وتندفع إلى اللهب وتحتك به ، فيزيدها ألماً على ألم . كأن ما أصابها أولاً على شدته قد ذهب أدراج الرياح . ولا تزال في اندفاع ونكوص حتى تنقطع أوصالها ، ويأتيها الموت من كل مكان .

هذا هو شأن غير الفقري من الحيوان ، فإنه يولد وينمو ، ونصيبه من الغريزة ثابت في الأمرين لا يقبل التعديل . وقد استثنوا من ذلك النمل والنحل والزبازب فإن التمرين يكسبها قوة ، كالحيوان الفقري الذي حياته رهينة الكسب .

## الشوق والتشويق

الشوق حنين النفس إلى شيء تميل إليه ، فتنبسط له الأعصاب ، وتستقبل مقداراً وفيراً من الدم يجول في أنحاء الجسم ، ويهوض ماتداثر من أنسجته ، ويطهره من فضلات الاحتراق . وإذا حيل بين النفس وما تشتهي انقبضت الأعصاب ، وانحسر الدم فياق الجسم العذاب من أجل ذلك ، ويعيش عيشة سيئة .

وليس لدينا ضابط للمشوقات إذ لكل إنسان غرض يوافق مزاجه يكفؤ لإدراكه ولا يطيق عنه صبرا ، فإن من يجيد الخط مثلاً إذا تناول مكتوباً قصر النظر على حروفه وتراكيبه وأشار إلى ما وافق القواعد الخطية وما خالفها ، بيد أن الأديب يوجه نظره إلى مادته

وما زخر فيها من المعاني وما حوته من الترتيب والتنسيق ، ويمرُّ بخطّه الكريم دون أن يعيره التفاتا .

لو قدر المرّبي على تعرّف مزاج الطفل من غضون حركاته لتسنى له أن يقطع لرقىّ التعليم شوطاً واسعاً ، ولا تتخذ له من ذرائع التشويق عدته ، ولأمكنه أن يضبط انتباه الطفل ويسير به إلى الغرض المنشود .

لأنقول بضرورة كون هذا الوازع المشوّق من الأمور المألوفة فحسب ، لأنّ الأمر المألوف تُرخّص العادة من قيمته ، فتبتذله النفس ولا يعود له وقع فيها . ولا نقول بضرورة كونه من الأشياء الطريفة الغريبة فحسب ، لأنّ الأمر الغريب تنفر منه النفس خشية أن تترسّم فيه ما يؤلمها .

وإذا اجتمع الطريف والمألوف معاً ، واثلت عناصرهما ، ولدت منهما شرارة الشوق ، وبرقت منهما أشعة الجذل والسرور . كم تتلهف نفس طالب العلم إلى إحراز مكافأة شوقاً إليها ، فإذا انطلق في ميدان العلم ولا مست قضاياه نفسه ، صار له من الاستكثار منه شوق يفنيه عن تلك المكافأة ، وبذلك نرى هذا الشوق خرج من دائرة المحسّات إلى درجة المعاني ، وهي الدرجة التي تسمو بها النفس .

وكثيراً ما نلهو نفس الطفل بما يملك حواسّه فينصرف عن الانتباه إلى ما يريد ، وماهى إلهمة المعلم يستعين بها على إنارة الشوق

فيه ، فيتحوّل الطفل بسهولة عن ميوله ويخضع لإرادة المعلم . فإذا رافقه المعلم إلى الصحراء مثلاً وأراه مظاهر الطبيعة ، وآثارها البديعة ، من الجبال والهضاب ، وكيف يتراكم السحاب ، وأراه الشمس لايسة حلة الجمال في شروقها وغروبها ، وفكّ وثاقه فسمح له بالجولان أينما شاء ، فإن ذلك بحرك في الشوق لا محالة فيزيد الأمور تأملاً ، ويملاً عيذه من محاسنها ، ويصنئ إلى أسماؤها وما يصوغه المعلم من الأحاديث لها ، ليسلى نفسه إذا عاد بذكرها ، ويحدث إخوانه مفتخرًا بها . وهذا هو معنى قول يستالوتزى : — « كتاب الطبيعة يجب أن يقرأ قبل كل كتاب »

ولقد يملك الشوق زمام الأديب فيدفعه إلى قرض الشعر أو قول النثر ، والمطالع يرى بروق الشوق تتلأأ من ثنايا منطقته العذب . ترى هذا جلياً في قول علي<sup>(١)</sup> بن الجهم يستمطر الرحمة للبعيد عن وطنه : —  
وارحمتاً للغريب في البلد — نازح ما ذا بنفسه صنما ؟  
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا  
فإن شوقه إلى وطنه تمكّن من قلبه تمكناً دفعه لإظهار حنانه على الغريب . وهذا قول أبي نواس<sup>(٢)</sup> له روعة أخرى لا تنقص عن تلك الروعة : —

(١) علي بن الجهم كان من الأدباء المعاصرين لهتوكل الخليفة العباسي  
(٢) أبو نواس هو أبو علي الحسين بن هاني توفى سنة ١٩٨ هـ من أجود الشعراء بديهة ، وأرقهم حاشية ، وكان العلماء يروون شعره لملاحظته ويتفكّهون به

تقول التي من بيتها خفّ مركبي      عزيز علينا أن نراك تسير  
أما دون مصر للعلا متطلب      بلى إن أسباب الغنى لكثير  
فقلت لها واستعجلتها بوادر      جرت فجرى في إثرهنّ عبير  
ذريتي أكثر حاسديك برحلة      إلى بلد فيه الخصب أمير  
فإنّه - إذ أبقى المقام بوطنه      ورغب في النزوح عنه - لم يحطّ  
من كرامته والسعى في جرّ النفع إليه ، فنشط إلى النزوح على غير إرادة  
أهله ، ليكمل نفسه ويكثر حاسديه بعودة تجعل حظّ وطنه من السعادة  
موفورا . وهذا الضرب من الشوق شيمة أولى النفوس الكبيرة

ولقد تفهم فواعل الشوق في الحيوان ، إذا صوّبت نظرك إلى  
الحصان مثلاً وقد ساقه سائسه إلى موارد الماء ، فإنّه ينقاد إليه رغماً  
منه ، ولا يكتفئ لا يشرب إلّا إذا اشتاق الماء ، أو أثار التصفير فيه  
هذا الشوق .

والشجرة تخرج أزهارها ذات الألوان الجميلة الجذابة تفتن بها  
الحشرات فتجىء إليها ، وتهبط عليها ، حاملة في فمها وبين أرجلها  
مادّة النبات فتتولد منه الثمرة .

### الحاجمة الى شحذ الغريزة

لو فحصت عن القوّة التي تضبط حركات الحيوان لعلمت أنّها  
الفرائز . فهو يسمى مسترشداً بنورها ، مقبلاً على الخير ، مدبراً عن الشر

ولو بحثت عن القوة التي تملك زمام الطفل ، وتكفل الرجل في الأوقات العصبية التي يذهل فيها عقله ، ويحار لبثه ، ما وجدت مصدرها غير الفرائز .

ولو نظرت إلى الإنسان العاقل والحوادث تصارعه ويصارعها ، لم تر له صديقاً حميماً يكف عنه المخاوف سوى الفرائز .  
فللفرائز الحول والطول ، والحكم العدل .

بيد أن البيثة بما زخرت من ضروب الحيل والزخرف تستطيع أن تموه الباطل وتصبغه بصبغة الحق ، وتقف في طريق الفرائز فتحول مجراها ، وتجعلها ذريمة الشر . فالسمكة تسمى في البحر بدافع الغريزة لنيل غذائها فنلتقمه ، وقد يكون طعاماً فتقع به في شرك الموت . والإنسان يستند إلى بني نوعه لأن الاجتماع فيه طبع ، فيجمعه سوء طالع به يقوم قطع التنازع أو اصر إخطائهم ، فياقي منهم ما يسوءه . والرجل يسقط من الترام فتتحرك رجلاه بحكم الغريزة دفاعاً عن النفس ، فتمر العجلات بهما فتبترهما . والغريق يمد يديه أملاً في المعونة ، أو رجاء أن تتعلقاً بشيء . فيكون صنعهما هذا سبباً للفرق ، إذ لو ترك نفسه لطفاً جزء منه فينجو . قال المعري في هذا المعنى : —

وكلُّ يريد العيش والعيش حتفه      ويستعذب اللذات وهي سمام  
وقال في موضع آخر

وربَّ ظمان إلى مورد      والموت لو يعلم في ورده

كذلك قال ابن زيدون في رسالته الجديّة : « لا غرّو قد يغص

الماء شاربته . ويقتل الدواء المستشفي به . ويؤتى الحذر من مأمنه .

وتكون منية المتعمى في أمنيته . والحين قد يسبق جهد الحريص .

فالفريزة ترشد بالطبع إلى السلامة ، وتتغير صبغتها صلاحاً

وفساداً تبعاً لطبيعة البيئة . ولذلك يجب إشراف العقل عليها ليخص

قضاياها ، ويتخذ منها مقدمات صادقة لأحكامه .

يتردد الإنسان بين طريق الفضائل والرذائل كالتائه في البيداء ،

والسارى في الظلماء ؛ وإذا اضطرب به بحر الحوادث مرت سفينته

بشواطئ الشره والقناعة ، والجن والشجاعة ، والحشمة والكبرياء ،

والتواضع والرياء . فلا يدري أيهما يختار ، ولا على أيهما يعول ؛ وإذا

قاده الفريزة إلى واحدة منها زحمته الأخرى حتى يؤيد العقل أمثلها ،

وبذلك يظهر مقام الأملحى الذى يظن بك الظن كأنه قد رأى وقد سمع .

كان ابن طولون يأكل في إحدى حدائقه . فرأى سائلاً في ثياب

رثة ، فأرسل إليه بعض الغلمان برغيف ودجاجة ، فأب الغلام دون

أن يتناول السائل منه شيئاً . فأمر ابن طولون به فأحضر ، واتهمه

بأنه جاسوس بعض الأعداء . فاعترف الرجل بذلك . فقال بعض

جاسائه إن صنيع الملك ضرب من السحر ، فقال ابن طولون : « إنما

هو قياس صائب ، إنى رأيت سوء هيئة الرجل ، وإبائه عن طعام يتمنى

الشبعان أن يأكله . ثم رأيت ماله من الجراءة ، ورباطة الجأش ،

فحكمت بما حكمت . »

وروى ابن خلدون أن رضوان قال : أنشدت أبا العباس ابن

وجوب إشراف  
العقل على الفرائز

شبيب مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها اليه وهو : —  
لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالى  
فقال له على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له : ومن أين لك  
ذلك ؟ قال من قوله : « ما الفرق » إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من  
أساليب كلام العرب . فقلت : لله أبوك ، فإنه ابن النحوي . فانظر كيف  
كان حكم هذا الناقد سيديدا . وقد أجاد ابن المعتز حيث يقول : —  
تفقد مساقط لحظ المريب فإن العيون وجوه القلوب  
وطالع بوادره في الكلام فإنك تجنى ثمار الغيوب

### كيف تتخذ الغريزة أساساً للتعليم ؟

علينا أن نشير بعض الغرائز في الطفل ، ثم نراقب أثرها ونمدله  
محوًا وإثباتًا على النمط الذي يلائم التعليم . فرضنا أننا عرضنا عليه أمة  
جديدة ، فإنك تراه كما في الشكل الآتي يمد يديه لأخذها متلطفًا ،  
وهذا طبع لا يتخلف فيه ما دام سليمًا من الأمراض . فرضنا أننا  
ضربناه على يديه وهو يمدّها ، فإنه يردّها مكرها ، خوفًا على نفسه من  
الأذى ، ويتسلط عليه اليأس فيبكي ويصرخ ، والبكاء في اصطلاح  
الأطفال لغة يعبر بها عن الاستياء الذاتيّ بهيج به عواطف السامعين  
للأخذ بناصره .

هنا ظهرنا أمامه حينئذ مشفقين ، ورمقناه بأعيننا فرحين ،

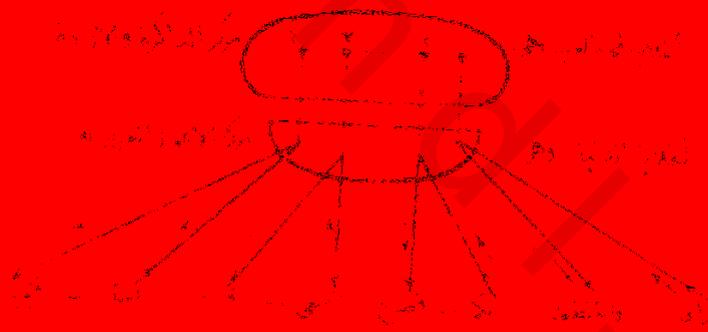
o  
p  
e  
i  
k  
a  
n  
d  
.  
c  
o  
m

لتصريح لإظهار عواقبه ، فإنه يظفر بفيه بالشرود .

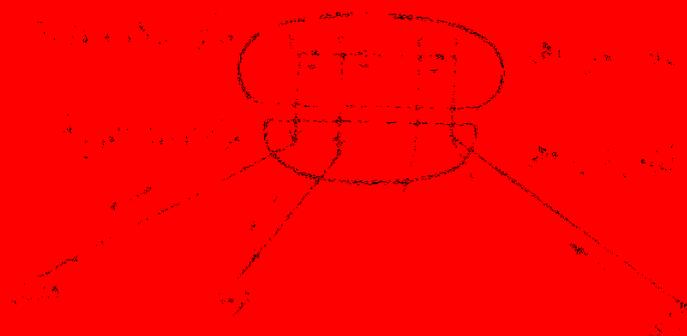
فإذا فهم الطفل هذه الحركات النفسية ورعاها ، واستعمل مشكته  
الخطئ والتذكر خير استعمال ، بمعنى أنه عندما تنزل به الحوادث يترك  
حتى يستذكر نتيجة تجاربه فيه له بها شبه ، فإنه يصبح أحزم من أن  
يبدئه مرة أخرى على وجه يكون عتياه الضرر .

وبعبارة أخرى يتف متردداً بين مطلبي الغريزة والعقل ، رغبة  
في أخذها ، ورهبة من العقوبة ، ويرجع جانب العقل .

هذا شكركم من ألكامح قبل التعليل



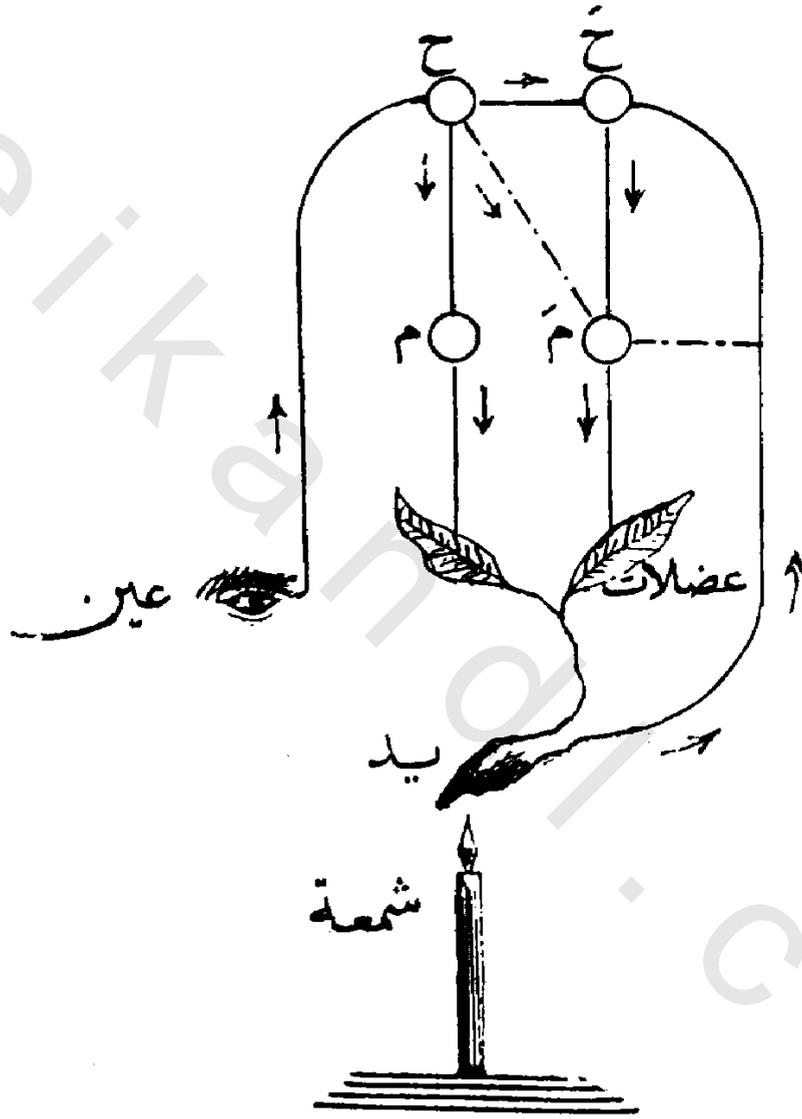
وهذا الشكل يمثل منسبا للشيخ بعد التعليل



إن الشكل الأول هنا يمثل أربعة مسالك للخلايا الدنيا ، التي هي مراجع للأعمال الغريزية . وأربعة مسالك أخرى منقطّة ، تصل الخلايا الدنيا بالعليا ، التي هي مستودع قوى الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والعقل ، ورسمها هكذا عنوان على وجودها بالقوّة ، وسير السهام يرشد إلى لزوم الأسباب للمسبّبات هكذا :

رأى فاخترطف - لكم فصاح - نصح فرجا - أخذ فتبسم  
وترى بالشكل الثاني أنّ رؤية الشيء لا يسير أثرها سيره الغريزيّ الأول ، المشار إليه بالمسلك المنقط ، بل يسير إلى قوّة الملاحظة لتفقد معالمه ، ثمّ إلى الحافظة والذاكرة ، ثمّ إلى الخيال فيحلّ أجزاءه ، ويركبه تركيباً يناسب ما رسخ فيه من قوّة الإبداع ، ثمّ إلى القوّة العاقلة المفكّرة لتتدبّر الأمر وتصوغ الحكيم الفصل ، وتبعث به إلى أعضاء الحركة لتستمدّ منها التنفيذ . وهنا يرى أنّ بعض المسالك الغريزية صار عاطلا ، بعد أن كان عاملا ، وأنّ التيار الذي ينقل التأثير بدلاً من أن يعجل فيوعز بالإفّاذ يجي ، إلى الخلايا العليا طلباً للاستشارة ، ثمّ يهبط أخيراً إلى الأعضاء العاملة بعد إيمان وروية . فانظر كيف فعل التعليم بالمسالك الغريزية ، وكيف أفاض عليها من خير الوسائل ما يكفل له إدراك الغاية المنشودة ، وكيف وفق بين المبدأ والغاية ، جاعلاً من العقل سلطاناً على الحركات ، وكيف تنبّهت المسالك الأخرى التي لولاها لاختل نظام الاعمال أو اعترأها الفساد ، وكيف برزت الأعمال ممحصّة بعد أن جرّدت من غشاوة التضليل .

عمل مثل هذا لم يأخذ على الإنسان عهداً أن يكون دائماً حليف الصواب ، فالجهد يصيب ويخطئ على حسب رزائة العقل ، وجودة تصرفات قواه ، ومساعدة العناية الإلهية .



إليك مثلاً آخر : إن الشمعة المضيئة في هذا الشكل تنبئه مركز الإحساس البصرى في المخ ح فينتقل التأثير منه إلى مركز الحركة م . ومنه إلى العضلات الموصولة به فتتحرك تنفيذاً للعمل المطلوب ، فتمتدُّ اليد إلى الشمعة لتلمسها . ثم إن الحركة التي تحدث ألم الاحتراق تنبئه

من طريق آخر مركز الإحساس حَ لأداء عمل يضادُّ الأوّل ، وهو كفُّ اليد عن مركز التأثير ، فإذا عرض التأثير في فرصة أخرى ، فإنّ مركز الإحساس الذي ضبط صورة الانفعال الأخير وما فيه من حرج ، ينقل الإحساس إلى حَ مباشرة بدلاً من الاستعانة بمركز الحركة م ، ثمّ يسرى حكم العقل في لهب الشمعة إلى كلِّ ماله شبه به ، فيدعو الحوادث ويذكر ما لا يسها من الخطر قبل أن تمتدّ اليد للاختبار ، ويصدر الحكم إمّا بعدم الاقتراب منه لأنّه ذو خطر ؛ وإمّا بالفرار منه ويكفي لذلك تنبيه المركز م .

وقد ورد في الأثر « لَا يُدْعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ » فالؤمن الذي شأنه أن يكون عاقلاً إذا نزلت به مصيبة ، بحث عن أسبابها ، وفسح لها في ذهنه مكاناً ، فإذا عاودته بنفسها أو بنظائرها ، أيقظ عقله للحكم السديد قياساً على ما جرّب ، ونبه الوازع لاجتنابها ، إلا إذا قضى عليه القضاء المبرّم ، وأنساه استحضار العبرة ، فيئنّد لا يتسع المجال إلا للصبر .

فملي المؤدبين أن يرفقوا بقوة الحفظ والذكر ، ولا يركنوا إلى مجرد الاستظهار مهملين الاستدكار الإرادى الذي هو دِعامَة الأخلاق . أليست المعاني كنزاً يدخر لينفق منه عند ميسر الحاجة ؟ ولولا الإنفاق لكان المدخر من سقط المتاع .

اختلاف نزعات الكتاب والخطباء  
تختلف نزعات الكتاب والخطباء باختلاف قدرتهم على عرض الأفكار وأشباهاها ونظائرها . ترى الشاعر إذا عزم على الإنشاء توارد

على ذهنه المعاني وعباراتها فيستجيد ، ويؤلف بين أشتات الشوارد ،  
ويسوق إلى الناس قولاً يستهوى العقول وينقلها إلى الأغراض التي  
يريدها ، فأحياناً يريد تصغير نفس البخيل في نظره وتنفيره من البخل .  
وقد قال حاتم الطائي في هذا المعنى وأجاد :

يرى البخيل سبيل المال واحدة      إن الجواد يرى في ماله سببلا  
ويرى أحياناً أن ينزع عن الجبان رداء الرعب والفرع وينفخ  
فيه روح الشجاعة والإقدام كما قال جرير :

قل للجبان إذا تأخر سرجه      هل أنت من شرك المنية ناج ؟  
ويريد أحياناً أن يزيل ما يخالج القلب من الامتعاض كما قال  
صاحب المثل السائر : —

جرحوا قلبي وجبهم يذهب بألم الجراحة ، وطرفوا عيني وهم  
يزيدون في نظرها ملاحه .

ويريد أحياناً أن يعتذر عن مزاوله أمر غير مباح على حد قول  
ابن الرومي : —

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه      حداداً على شرح الشبيبة يابس  
ويريد أحياناً أن يرقى إلى ذروة الرجاء فيصوغ القول الفذ على  
النهج الذي صاغه أبو زيد الأشبوني في إدريس العالى ملك الأندلس  
حيث قال : —

انظرونا تقبس من نوركم      إنه من نور رب العالمين  
وقد بلغ تأثير الملك من روعة هذا الشعر ، وكان محتجباً على عادته

أن أمر الحاجب أن يرفع عنه الحجاب ، ليقابل بوجهه وجه الشاعر ،  
وأمر له باحسان ليجمع بين أمنيته .

وأحياناً يودُّ تصوير الحقيقة بالوصف الموجز كقول الحرث بن  
حازة اليشكري

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء  
من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصهال خيلٍ خلال ذلك رغاء<sup>(١)</sup>

## الملكات العقلية

### (١) الملاحظة

استدعى معلم شابّين من تلاميذه ، فلما مثلاً بين يديه سألها  
عما شاهدت في الطريق إلى المدرسة ، فأجاب أحدهما بأنه غادر المنزل  
وسار حتى وصل إلى المدرسة ، ولم يتذكر شيئاً رآه في أثناء السير أو سمعه .  
أمّا الآخر فقد أطرقت قليلاً ، ثمّ انبرى فقصّ ما أثار في حواسه من  
مظاهر الكون وزخرف الصناعة ، وأرسل شعاعاً من فكره إلى  
دقائقها ، فأحاط بها ورسمها رسماً يحرك العواطف ويستحث الخيال ؛  
ثمّ انطلق جواد لسانه في ميدان القول ، فوصف الجوّ صباحاً حينما غادر  
المنزل ، وعطف على وصف الشمس وقت شروقها ، وما لها من القوة  
في إزالة حجب الظلام ؛ ثمّ تكلم عن السحاب وتكوينه وفوائده

ووقوفه أمام الشمس وانحساره عنها ، ووصف نور الشجر يفتحه مرّة  
النسيم ، ويتفرق عليه دمع الندى ، وتطرّب به الأرجاء — وصف كلّ  
هذا وصفاً جمع طرائف الأدب ، ومشاهد الطبيعة . ثمّ شخص إلى  
عالم الحيوان والطيور فذكر ما شجاه من أصواتها ، وما عرف من  
سجاياها ، وقد أخذ حديثه يتدفّق تدفقاً يدلّ حسن تنسيقه وارتباط  
أجزائه على قوّة بليغة من الملاحظة وحسن الذوق ، ومن ذا الذي  
لا تفتنه مظاهر الطبيعة ؟ قبل بزوغ الشمس يكون السكون شاملاً ،  
حتى إذا تنفّس الصبح غرّدت الطيور على أفنان الأشجار فرحة ، ثمّ  
تتألق الشمس فتخلع عن الجوّ لباس الحداد الذي اكتسى به حزناً على  
فراقها ، وتأخذ في السير والنفوس تشيّعها بنظرات المشتاق حتى تغيب  
فمثل هذا المظهر إذا صقلته يد الطبيعة ، وألبسته ثياب الجدّة ،  
تجدّه يوجه زمام النفس إلى التطلع إليه ، والكفّ عما سواه ، ومتى  
شبع منه — وزمن هذا لا يزيد على بضع ثوان — أدركت بنيتها ،  
وصار تأثيره فيها عادياً ، اللهم إلا إذا تغيّر شكله أو وصفه ، أو تكرر  
نظر النفس إليه باعتبارات عدّة .

لا نطمع أن نذكر السبب الحقيقيّ لذلك ، وإنما يهمنا أن نرى  
وأنواع على سبيل الحدس والتخمين وجه التأثير . فإنّ المعاني الجديدة  
— على ما شرحنا في باب الشوق — تثير النفس فترحّب بها ، وتنزلها  
في دائرة تليق بها من فراغ العقل ، وهناك يحصل بين المكان وتزيله  
احتكاك كاحتكاك الكهرباء ، فيتولد منه شرارة نعبّر عنها بوجودان

السرور والجلد . فإذا تحققتنا أن نتيجة هذا التفاعل فقدان مادة التيارات الكهربائية ، فلا نزاع في أن حركة الوجدان ينشأ عنها استهلاك مادة الخلية المنوطة بملاحظته ، فتصرف عنه انصرافاً قهرياً . والملاحظة حينئذ لا تقف ، بل تنتقل من سبيل إلى سبيل ، مادامت النفس في طور اليقظة .

فإذا شدنا حبس الملاحظة على أمر بعينه ، فلا بد من صبغه بصبغة متجددة كالحياة<sup>(١)</sup> ، ليعت النفس على إيقاظ ما غزرت مادته من الخلايا . والنفس الكبيرة لا تعتمد على شيء مما يثير الملاحظة ، بل تتصرف بنفسها ناظرة إلى الشيء الثابت من وجوه متنوعة لتكون المعاني جديدة فيباضة . ولا نحتاج إلى شيء وراء هذا لتقويم الملاحظة التي عليها عماد القوى العقلية .

ضع قلمك أمامك ، وتفرغ للنظر إليه ، بحيث لا تدع البصر يتحوّل عنه ، فإنه لا محالة يكلّ بعد زمن وجيز . لكنك إذا شخصت إليه من وجوه كثيرة ، وعرضت أوصافه ، ففحصت عن شكله ولونه واعتداله ، وطيب مادته ، وحسن بريه ، وسلاسة كتابته ، ووازنتم بينه وبين نظائره . ثم إذا توسّعت وخرجت من حظيرة الملاحظة ، وسمحت للانتباه أن يتصوّر الأقطار التي تزرعه ، والصنّاع الذين يهيئونهم للاستعمال ، والتجار الذين يجلبونهم إلى ديارنا ، ثم اخترق ذهنك حجاب الماضي فكشفت عن تاريخه ، وما ترنّم الأدباء بشأنه في المديح

وما صاغوه من زخرف القول ، في المفاضلة بينه وبين السيف إلى آخر ما تستطيع سرده على سبيل الاستطراد — فإنك تجد زمن الملاحظة يطول بقدر ما يسمح به حسن تصرفك ، لأن كل حركة ذهنية من هذا القبيل تنبه خلية خاصة ، ولا تكاد تكمل الواحدة حتى تنبته الأخرى .

لا تستطيع النفس أن تصوب سهام الملاحظة إلا إلى شيء ، تحوّل الملاحظة واحد في زمن واحد ، وقد يكون الانتباه إليه قهرياً إذا قوى سببه كصوت الموسيقى ، ورؤية البرق الخاطف ، وسماع الرعد القاصف . وقد يحدث فيها امتعاضاً وألماً ، كمن أصيب بجرح وتولى الطبيب تضميده ، انظر إلى الشكل الآتي .

غير أن النفس حينئذ هرباً من إحساس التوجع تتوسّل إلى الانصراف عنه بمامل آخر كالتهنّد أو الصراخ أو اضطراب الأيدي والأرجل ، لتحوّل الملاحظة إلى أمر آخر تحدّثه ؛ كأنها تسمى بطبيعتها لهدئة خاطر السقيم ، فتقيم شيئاً سهلاً مقام شيء صعب . ومثل هذا ضحك الحزين « وشرّ الشدائد ما يضحك » ، وامله من الجسم تخفيف للوعة ، كالعرق يفرزه الجسم قليلاً لو طأة الحرارة . وغالباً يبكي الأطفال بأصوات رهيبية ، ولم يكن بكاؤهم يأساً من فقدان الشيء ، بل تساية وتخفيفاً لمصيبة الحرمان . وإن من يزرع تحت أعباء البؤس تناهف نفسه لاستذكار ما تمتع به من قبل ، أو تنصرف إلى انتظار أسباب الفرج ترجو بها تخفيف وقع الشدّة . حتى إذا صاح الأمر وجبر الكسر



هذين الأمرين ليسا خاضعين لسلطان واحد . فأحدهما صادر عن الفكر ، والآخر صيرته العادة آلياً .

الملاحظة نور تستجلى به النفس حقائق المرئيات وأشباهاها من المحسّات . فبينما الإنسان يمرُّ بفكره على الأشياء بدون إمعان وروية ، ولا يستطيع أن يفوس في مضامينها ، ليتعرّف شأنها ، وما تحتوي من خير وشرّ ، تجرد المصوّر يرمق الأشياء بعين الخبير ، فيرسم ورق الشجر بدرجات متفاوتة في الخضرة ، بحسب نصيبه من الضوء ، فأحياناً مشرباً بسمرة وأحياناً بصفرة . وتجد الفيلسوف ناظراً إلى السماء ، غوّاصاً في بحار الفكر والتأمّل . على أنّ النفس المدركة تتفاوت مدركاتها للشئ ، الواحد بتنوع أطوارها كالنشاط والكسل ، والجوع والامتلاء ، والصحة والسقم ، والسرور والحزن ، والعلم والجهل ، فتجدها لا تستقرُّ على حال واحدة كزئبق مقياس الحرارة . ولا مُشاحة في أنّ حالها في الصباح غيرُ حالها في المساء ، وهي في الشتاء غيرُها في الصيف ، وهي صغيرةٌ غيرُها كبيرةٌ أو معمرةٌ ، وهي ساذجةٌ غيرُها عالمةٌ مدبرةٌ مجرّبةٌ . فكم لعب اليأس بفكر لاعب الشطرنج<sup>(١)</sup> مثلاً ، فتفيض عليه الملاحظة وحيّاً ينفخ فيه روحاً يقهر بها خصمه في ميدان المناضلة . وقد تعرّضه العقبة الكأداء فيحكّم الملاحظة ويخرج منها حليف الفوز ناجحاً . ولم التذ الإنسان من

تفاوت مدركات  
النفس الواحدة

(١) الشطرنج لعبة هندية الاصل قد اتصلت بالشرق أولاً ثم صارت من

أهم الألعاب في العالم . اعتبرها الغربيون دون العلوم يسير وفوق الألعاب بكثير

زخرف الشيء لأوّل وهلة ، أو استجاد مذاقه فانبرى بحمده ، ويحبّب  
النفوس إليه ، مع أنه لو راقبه بإمعان ، وأفاض عليه شعاعاً من نور  
الفكر لانبجلى عن سمّ في دسم

فالملاحظة نعيم الفكر ، وسلوى المتوجّع ، ومفزع المحزون ،  
وحسبنا دليلاً على علوّ شأنها ما نرى من آثارها الكبار عند ترداد  
النظر إلى شيء معين

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً<sup>(١)</sup>

ناهيك بدرجة المراقبة التي يلوذ بها الأتقياء ، فيعرضون أعمالهم  
على محكّ الانتقاد قبل أن يختموا صحيفة يومهم ؛ ويحاسبون أنفسهم  
على ما فعلوا ، فإذا كان خيراً عزموا على الاستكثار منه ، وإذا خطرت  
فيه شائبة الباطل استعاذوا بالله منه وتحاموه .

لا سبيل إلى تقويم الملاحظة إلا بالمحافظة على سلامة الحواسّ  
ومعالجتها بالتمرين . إذنّ تدرك العين الفروق بين الأشكال ما جاء منها  
منظماً ، وما حاد عن النظام ، وكذلك بين الألوان وما بينها من الدرجات ،  
وتدرك الأبعاد بموازنتها بأبعاد معلومة لديها من قبيل ؛ كذلك تدرك

(١) أصل هذا البيت للعباس بن الاحنف فان هرون الرشيد وصف

جاريته جنانا بقوله

جنان قد رأيناها فلم نر مثلها بشراً

ثم حاول الرشيد أن يضيف عليه فامتنع عليه القول فأرسل الى العباس بن  
الاحنف وكافه أن يردفه بمثله فقال

يزيدك وجهها حسناً إذا ما زدته نظراً

الأذن المسموعات سواء أكانت من خربير الماء ، أم من عصف الريح ،  
وتفريد الطائر ، وغناء الإنسان ، وعزف الآلات ، ونفخ المزامير .

حاجة المعلم  
الى الملاحظة

من اشترط في المعلم أن يكون طيبيا ، أو على الأقل عارفا ما يعرض  
للحواس من الأمراض ، مستطيعا تقويم المَعْوَج منها ، ما خرج عن  
محجة الصواب . وكثيرا ما رأينا قصار النظر من التلاميذ جالسين في  
مؤخر الحجرة بالمدرسة ، بعيدين عن المربيّات التي يقيد المعلم أوابدها  
على السبورة . فأمثالهم يطيش سهم بصرهم ، ويتوسم فيهم المعلم  
الضعيف بلهاهم بريثون منه . وقد تعترى الأعضاء الداخلية أمراض  
تعوق السمع عن إثبات المعاني ، وتؤدي بالطفل إلى أن يفهم فيه  
ما ليس حقيقيا . وكمن تلميذ يتبادر إلى معلمه أن سمعه سايم ، ولو  
فحصه لعرف مركز الداء ، واستعان بالدواء . واعلم أن بالحاق قناة موصولة  
بالأنف ، إذا سدّت لا تؤدي الأذن وظيفتها ، ومثلها كالصّفارة إذا  
سدّ ثقب منها . تفقّد حجرة بالمدرسة وراقب تلاميذها فلا تكاد  
تجدها خالية من تلميذ فاتح فاه . يفعل هذا قهرا ليتنفّس منه لأن الأنف  
— وهو عضو التنفّس الطبيعي — مسدود . وقد زوّدت الفطرة بزغب  
شعري لينقى الهواء الداخل إلى الرئة من الجراثيم . فإذا أمره المعلم  
— ولا مردّ لأمره — بإغلاق فمه فقد حاول عبثا ، وظلم نفسه .

فإذا تبين لك أن فتح فمه يدلّ على أن تلك القناة مسدودة ،  
علمت أن سمعه معطل لا يضبط المسموعات الواصلة إليه ، ومحتاج

إلى علاج جراحي

## ( ٢ ) الحفظ والذكر

تصل آثار المحسّات في النفس أحياناً إلى درجة بعيدة المدى ،  
ويزيد الإنسان وصفها فيستعصى عليه القول ، وكلما نشط رأى العيان ،  
أجلى من البيان . دُعِيَ أحد السراة إلى مأدبة بقصر طايدين ، ولا تسئل  
عن هذا القصر الذي هو زينة الدنيا ، ورمز لأبهة ملك مصر ؛ فرأى  
بناءً فخماً كسته الرفاهة ثوب الجلال ، واجتمعت فيه أشتات الجمال ،  
من نور لامع ساطع ، وتقش جذاب خلاب ، وأثاث فتان ، يلعب  
بالوجدان ؛ ورأى صدور المدعوّين تموج بالأوسمة ، وثغورهم من فرط  
السرور باسمه ؛ وسمع من حديث ربّ الدار ، جوامع الأفكار ، وذواق  
من المأكولات ، ألوان المشهيات ؛ وشمّ من عبير الأزهار المتألّقة ،  
رياحاً عبقية . فاح منها الأريج ، وأولعت باستنشاقها المهيج .

فلما انفرط عقد الاجتماع ، ذهب إلى منزله وأثر هذه المحسّات  
البديعة في نفسه عظيم ، وما ذهب إلى فراشه حتى أخذت المعاني تجول  
في ذهنه وحرمته النوم . أسرّ هذا أنّ الحفلة كانت منقطعة النظير ؛  
أم أنّ البصر والسمع والشمّ والذوق تآزرت جميعاً لاستذكارها ؛  
لا أخفى عليك أنّ الشوق والملاحظة يبعثان في النفس تشرب المحاسن  
كما تشرب الإسفنج الماء ، أو كما تمتصّ جذور النبات غذاءها من  
الأرض ، فيتفرّغ لها العقل ، وتتكيّف من أجلها الخلايا المنوطة  
بالحفظ والذكر



الذهن يحصل برسمها على لفائف المخ كما تنطبع الصور في المرآة ، فإذا عسى أن يكون حفظ المسموعات والمشمومات والمذوقات والمعاني التي يضيق بها متسع العقل في غضون الأيام والليالي ؟

لنوابغ في الحفظ  
والذكر

من الناس من قوته الفطرية في الحفظ والذكر غاية في الحدة والمضاء ، كأبي العلاء المعري ، والأصمعي ، وحماد الراوية . أما أبو العلاء المعري فافتن المؤرخون باستعداد قوته ، حتى حدثوا عنه أن الأصوات الأعجمية التي لا يدرك معانيها تنطبع في ذهنه ويستطيع أن يرددها كما سمعها . وقالوا من غريب حذقه في قوة التعريض أنه حضر مجلس المرتضى في بغداد فجرى ذكر المتنبي وكان المرتضى يكرهه ويتمصّب عليه ، وكان المعري يحبّه ويتمصّب له ، فانتقصه المرتضى وأخذ يتتبع عيوبه ، فقال المعري لو لم يقل إلا قصيدته التي مطلعها « لك يا منازل في القلوب منازل » لكفاه . فغضب المرتضى وأمر بإخراجه وقال المرتضى لمن حضر : أتدرون لما ذا اختار الأعمى هذه القصيدة دون غيرها من غرر المتنبي ؟ إنما عرض بقوله :

وإذا أتتك مذمتي من نافص فهي الشهادة لي بأنّي كامل

فقدّر مع ذلك قوة إدراك المرتضى للمغازي البعيدة ، والتلميح الذي لا يابته له إلا فطاحل الأدب ، والنوابغ في الحفظ والذكر .

وأما الأصمعي فكان كثير الحفظ قويّ الذكر ، إماماً في اللغة

والغرائب ، ويستدلُّ الأدباء على حذقه وبراعته أنه اجتمع مع أبي عبيدة عند الفضل بن الربيع وقد ألف كلُّ منهما كتاباً في الخيل ،

فلما سئل أبو عبيدة أن يقوم إلى فرس ابن الربيع ويسمى كل عضو فيه ، أبى وقال : لست بيطارا ، وإنما أخذت ما كتبت عن العرب .  
ولما سئل الأصمعي قام وجعل يضع يده على كل عضو ويسميه ،  
ويُنشد ما قالت العرب فيه . فلما فرغ أعطى الفرس

وأما حماد الراوية فقد استدعاه هشام بن عبد الملك وقطع في سفره إليه اثنتي عشرة ليلة راكباً جلاً مهرياً ، ولما مثل بين يديه قال له : إنما بعثت إليك لبيت من الشعر خطر ببالي لم أدر من قاله وهو :  
فدعوا بالصبح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق  
فقال في الحال : هو لعدي بن زيد من قصيدة ، وانبرى يُنشدُها  
من حافظته .

من الناس من قوته أضبط للمرثيات دون المسموعات ، ولا يتذكر الأصوات إلا إذا قرنت بكتابة أسمائها أو رسم مسمياتها . وقد حكى عن أحد البارعين في فن الرسم أنه زار لندن ليقابل أحد أصحابه فنسى اسمه ، ولكنه رسم وجهه واستعان بذلك على السؤال عنه . ومن لم تمنحه الفطرة نبوغاً في حدة هاتين القوتين فحسبه أن يشحذها بفهم الأمور وترتيبها وتنسيقها وربط أطرافها بعضها ببعض . فإن الحقائق المفككة الأوصال يكون مثلها في الذهن كمثل الكتب المبعثرة ، يخبزها جامعها شفقاً بالعلم ، ولكن سوء ترتيبها يجعل الحصول عليها عند الطلب صعب المنال

قال أبو نواس في وصف الخمر : —

قوة الحفظ في  
ضبط المرثيات

كَأَنَّ صَغْرَى وَكَبْرَى مِنْ قَقَاعِمَهَا حَصْبَاءَ دَرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ  
فَاعْتَبِرِ الْأُدْبَاءَ الْمَشْبَبَةَ بِهِ هُنَا أَمْرًا خِيَالِيًّا ، وَمَا زَالُوا كَذَلِكَ حَتَّى  
تَرْوِّجَ الْمَأْمُونُ — أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — بَوْرَانَ بِنْتَ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ ،  
وَقُدِّمَ إِلَيْهَا لَيْلَةَ الزَّفَافِ حَصِيرٌ نَثَرَتْ عَلَيْهِ اللَّائِيَّ ، فَتَمَثَّلَ الْمَأْمُونُ بِهَذَا  
الْبَيْتِ وَقَالَ « كَأَنَّ أَبَا نَوَاسٍ وَهُوَ يَصُوغُ هَذَا الْبَيْتَ كَانَ حَاضِرًا مَعَنَا » .  
فَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْبَدِيعَةُ الَّتِي صَوَّرَتْهَا قَرِيحَةُ أَبِي نَوَاسٍ قَبْلَ أَنْ تَخْلُقَ ، لَمْ  
تَكُنْ تَأْتِي إِلَى ذَاكِرْتِهِ لَوْ كَانَ ذَهْنُهُ مَضْطَرِبًا ، وَحَفِظَهُ ضَمِيمًا ، وَذَكَرَهُ  
عَلَى حَالٍ لَا تَسْتَطِيعُ التَّوْفِيقُ بَيْنَ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَبَايُنِ دَرَجَاتِ هَاتَيْنِ الْقَوَتَيْنِ أَنَّ النَّاسَ يَسْمَعُونَ  
مَوْضُوعًا وَاحِدًا ، فَيَنْقُدُهُ كُلُّ مَنْهُمُ بِحَسَبِ مَا رَكَزَ فِي طَبَعِهِ مِنَ الْمَيُولِ  
إِلَى الشَّكْلِ أَوِ اللَّوْنِ أَوِ الْعَلَّةِ وَالْمَعْلُولِ أَوِ السَّبَبِ وَالْمَسْبَبِ . وَقَدْ سَمِعَ  
بِشَارُ بْنُ بَرْدٍ أَحَدَ النَّاسِ يَفْسِّرُ بَيْتًا مِنْ شَعْرِهِ فَأَعْجِبَهُ تَفْسِيرُهُ ، وَقَالَ  
لِرَاوِيهِ : أَرُوهُ هَذَا الْمَعْنَى فَوَاللَّهِ مَا عَنَيْتُهُ

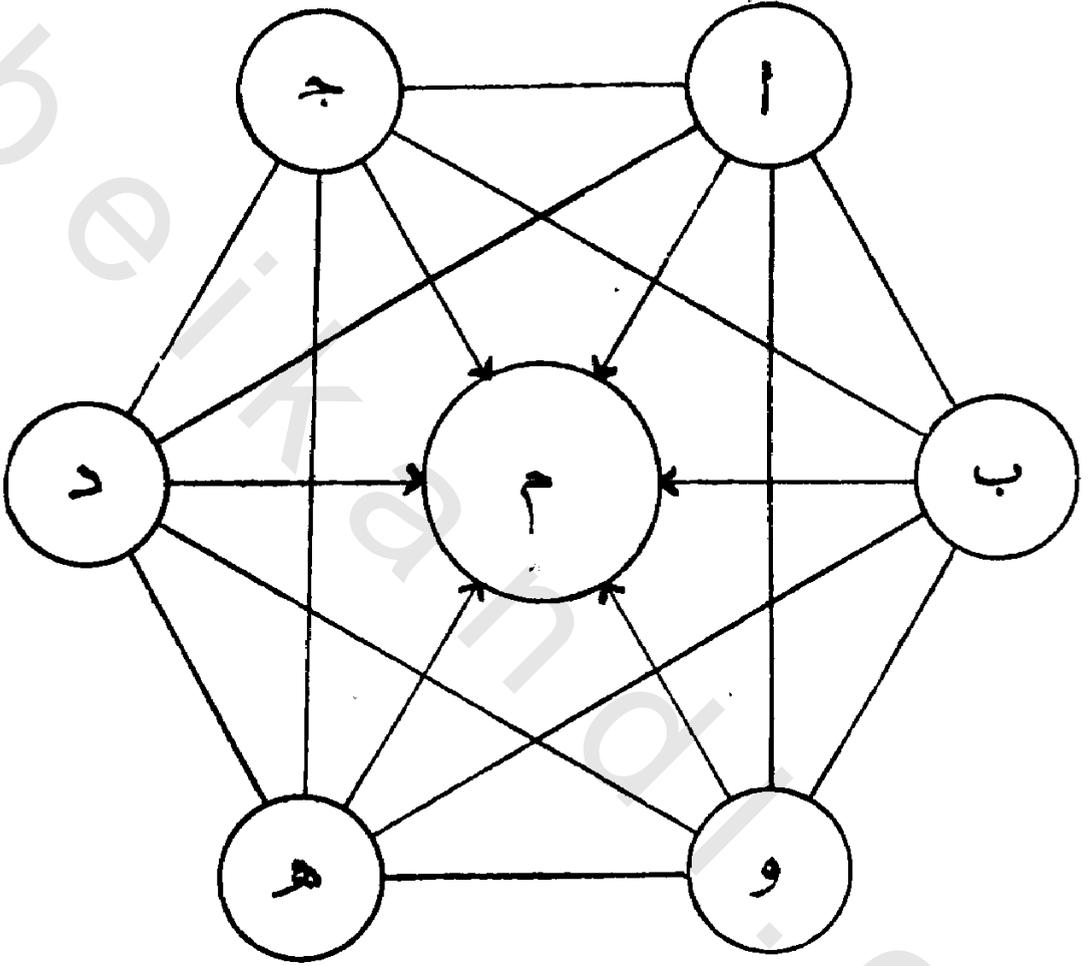
وَالعِبَارَةُ تَصَاغُ لِتَوْذِيٍّ مَعْنَى خَاصًّا فَإِذَا هِيَ تَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ أَوْ  
أَكْثَرَ ، وَالْقَارِئُ يَحْتَاجُ حِينَئِذٍ إِلَى مَرَاعَاةِ سِيَاقِ الْكَلَامِ لِيَصْرِفَ مَعْنَاهُ إِلَى  
الْمَقْصُودِ مِنْهَا . قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : خَدِمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
عَشْرَ سِنِينَ فَلَمْ يَقُلْ لَشَيْءٍ فَعَلْتُهُ : لِمَ فَعَلْتُهُ ؟ وَلَا لَشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ لِمَ لَا فَعَلْتُهُ ؟  
فِيحْتَمِلُ أَنََّّهُ وَصَفَ رَسُولَ اللَّهِ بِالصَّبْرِ عَلَى خَلْقٍ مِنْ يَصْحَبِهِ . وَيَحْتَمِلُ أَنَّ  
أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْفِطْنَةِ وَالذِّكَاةِ فِيمَا يَقْصِدُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ،  
كَأَنَّهُ مَتَفَطِّنٌ لِمَا فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ فَيَفْعَلُهُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى اسْتِثْنَائِهِ .

فما أشبه هذه العبارة بجسم بلورى ذى أسطحه تنبعث منها ألوان جذابة ، يرى بعض الناس منها ما لا يراه الآخر ، وكلّ منهم يعبر عما أبصرته عيناه وخالج نفسه

يحضر الناس حفلة الغناء ، ويظهرون ما لا يقبل لهم به من الانتباه ، ثم يخرجون فيترنم أحدهم بتلحينه على مثال الأصل ، ويتعثر الآخر فى أذيال الخيبة . فالقدرة على إبراز المحفوظات غير القدرة على صيانة هذه المحفوظات ، ولا سبيل إلى سبر غور قوّة الحفظ إلا بما تظهره قوّة الذكر الإرادى من الأعمال . وعلى مقدار معاناة الذهن التعب عند حفظ الشئ ، يكون رسوخه فيه ، كالسمار إذا دُقّ فى الجدار ، حتى إذا ثبت فيه كان استذكاره سهلاً . وبديهي أن الإنسان إذا استراح تدفقت على ذهنه تيارات الأفكار ، هامة أو غير هامة ، سديدة أو غير سديدة . أمّا التذكر الإرادى فهو يحكّ العقل بتقيده به النفس فى دائرة محدودة عند البحث والمناظرة . وإذا جنحت عن الموضوع قام منها رقيب يقود زمامها إليه . وقد خطب سبحانه وائل من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تمنح ، ولا سعل ، ولا توقف ، ولا تلكأ ، ولا ابتداء فى معنى وخرج منه دون أن يوقيه حقه . فانظر كيف اكتظّ عقله بحلقات المعانى المتناسكة .

وأحياناً يهتأ استذكار أمر ، فنصيب له شبك البحث ، وتفرك الناصية طلباً له ، وادكته يستعصى فنتركه ونذهب إلى موضوع آخر ، وإننا لكذلك وإذا بالفرض الذى كنا ننشده قد رفرق على الذهن .

فالسّر في هذا أنّ الغرض الذي قصدنا استذكاره قد كان بالموضوع الثاني أكثر ارتباطاً وغابت عنا حقيقة هذه الرُّبُط. وفي الشكل الآتي:



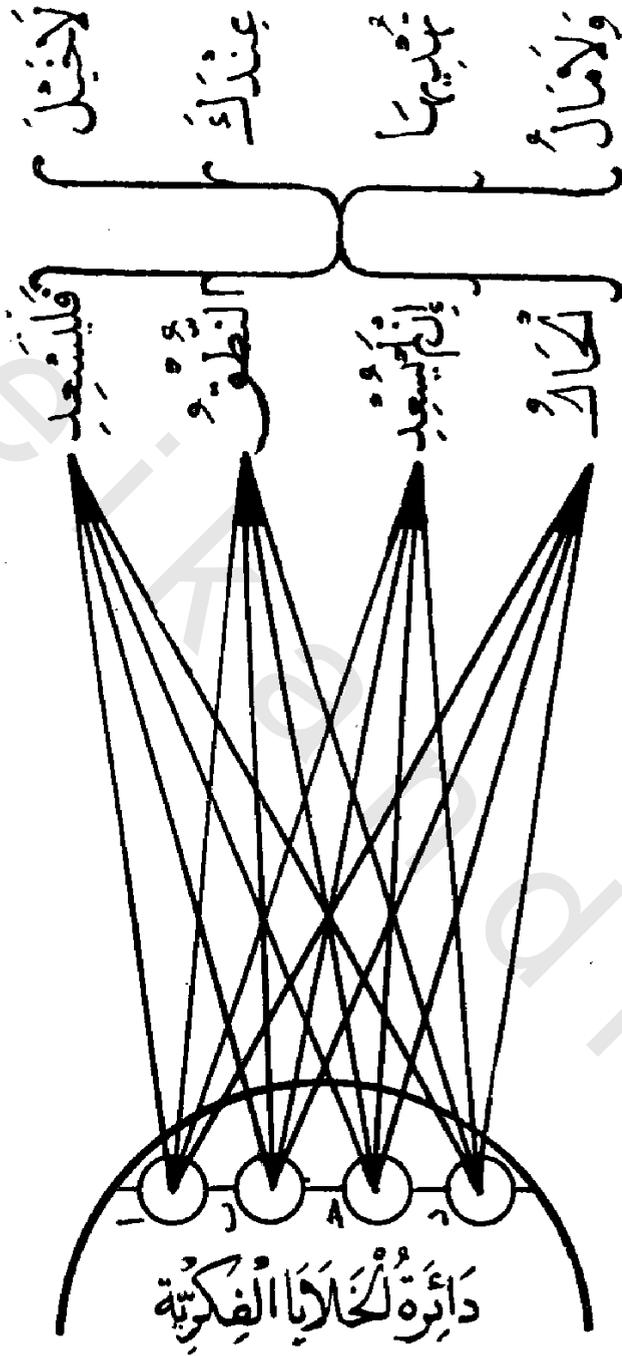
م رمز لمعنى منسى و ا و ب و ج رمز للمعاني المتصلة به على ما نظن .  
فاذا حاولنا استذكاره بها وفشلنا في ذلك ، وجب علينا أن نبحت عن  
معانٍ آخر مثل و و هـ و ، ترتبط بتلك المعاني وبه ، ولا تزال نطيل  
البحث عنه حتى يتحقق رجاؤنا . كان يحضر طلابُ العلمِ دروسَ  
وليم جيمس فكان يجلسهم على ترتيب أسمائهم ، ويناديهم بها ليقرن  
الأسماء بالمسميات . وكلّما قابله أحدهم ولم يتذكّر اسمه استحضر في

على ترتيبها ، ولا يزال يذكر سبباً بعد آخر حتى يدرك غرضه .  
ومن أجل تسهيل استذكار الأمور ففكر بعضهم في ضرورة  
قرنها بما لا ينسى كالرتية ، وهي خيط يشد في الإصبع لتستذكر به  
الحاجة . وخير وسائل الحفظ الإكثار من الروابط العقلية .

إذا لم تكن حاجتنا في نفوسنا فليس بمن عنك عقد الرثام  
ولأمر ما يصعب على الفكر أحياناً استذكار عبارة محفوظة ،  
فتبرى المراكز الفكرية للبحث عنها ، طال بها الزمن أو قصر .  
أردت أن أستهجد بهذا البيت :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسهذ النطق إن لم يسهذ الحال  
ومع أن معناه حضر إلى الذهن فقد ذهبت ألفاظه كلها أو بعضها  
أدراج الرياح . انظر إلى الشكل الآتي تجد المراكز الفكرية الرموز  
إليها بالحروف a, b, c, وقد أرسلت أشعة بحثها إلى ما أمكن  
النطق به وهو الشطر الثاني منه ، ثم لبثت في أخذ وردّ وتأمل  
وتنقيب بين الألفاظ والتراكيب ، وبينها وبين المراكز الفكرية ، حتى  
هبطت إليها ألفاظ الشطر الأول .

على مثال هذا نصوص القضايا المنطقية نهتدى بها إلى كشف  
المجهول ، أو نفحص عن الأسباب ، لفهم حقيقة المسببات . ولا يكون  
أملنا عظيماً في الحفظ والذكر إلا بعد أن نفهم الأمر ونستجلى  
غامضه ، وتقيم حوله سياجاً من العلاقات ، ونواخي بينه وبين المعاني ،  
ثم نعود إليه أحياناً ونكاف استذكاره بالنص ، وإذا استعصى فبالعنى



تا الحفظ والذكر  
في أطوار الحياة

إن تيار هاتين القوتين جارف ، وهو دائماً بين مدّ وجزر ،  
وسكون واضطراب . ففي عهد الطفولة تكون صفحة الذهن صافية  
كالمرآة، تنطبع عليها الصور انطباعاً واضحاً تخلّوه من شواغل الحياة  
وقد أتى الطفل مقاليد شئونه إلى المشرفين عليه

فإذا جاوز الخامسة والمشرين من العمر ظهرت عليه غالباً بوادر الضعف فيهما ، ويفسد النسيان ما يرجوه من إنجاز الأعمال . وهذا يرجع إما إلى كبر السن ، وإما إلى اكتظاظ الذهن بالمعاني المتجددة ، وإما إلى كثرة ما أصابه من المحو والإببات كالوح الإردواز بعد طول الاستعمال ، وإما إلى تلاطم أمواج الأفكار في ميدان ذى سعة محدودة . والرجوليّة طور تتضاعف فيه المطالب ، وتمطم التبعة ، فتتردد على الذهن المسائل المرتبطة بالمنزل والأولاد ، وبالصرف والإيراد ، ودرس مشاكل الحياة ، وطباع الخلقاء ، ليستفيد من خبرهم ويصون نفسه عن أذاهم ، وكيف يرجى من شخص أحاطت به الشواغل المتنوعة أن يكون في مضاء الحافظة والذاكرة كالطفل المجرّد منها ؛ على أن المخّ عند الطاعنين في السنّ كالثوب الخلق الذى تقادم عليه العهد ، لا يقوى على أداء عمله على ما ينبى .

### ( ٣ ) الخيال

هو ملكة قوامها الحكّ والربط ، وأدنى درجاته ما يُستدّكر من المحفوظات مع التصرف بالزيادة أو النقصان ، وأسماء ما جرى تركيبه على غير مثال ، كالصائغ يتصدى للعناصر فيجمعها ويسببها في قوالب آخر . نرى الطفل لا يريد أن يخضع لغيره ، وأقصى أمانته أن يبعد عن مراقبة الناقدين لكي يجد مجال الخيال واسعا . غير أن خياله في هذا الطور طفل مثله ، ليس مضبوطا ولا خاضعا لسلطان العقل ،

ولذلك كلفه بعض المرّبين مزاولة الحقائق الكونيّة ، وأبعده عن قراءة الروايات والخرافات ، فإنّها لا تزيده إلا انحرافاً عن الحقّ .  
سأل معلّم تلميذاً أن يذكر مثلاً للدلالة على أنّ الحرارة تمدّ الأجسام فقال التلميذ : « إنّ النهار صيفاً يطول بتأثير الحرارة فيه ، فاستعمل القياس ولم يفطن إلى أنّه لا ينطبق على الواقع . ولا تكاد تسمع منه جواباً مثل ذلك إذا ضبط خياله ، ووقف على حقيقة الأسباب لطول النهار صيفاً ، وقصره شتاء .

خيال النائم

للخيال في النوم مجال واسع . انظر إلى الطفل وهو نائم تجده يتخيّل أنّه بين يدي مرضعه ، فتشاهده يحرّك شفّتيه كأنّما يرضع ولا تدي في فمه . حدّث تارتيني ( Tartini ) وهو أحد مشهورى الموسيقيّين في القرن الثامن عشر : أنّه رأى الشيطان في الحلم خاضعاً له ، فناولته تارتيني « الكمنجه » وأمره أن يلحنّ بها في نوع من الإيقاع حدّده له ، فعزف الشيطان بمهارة فائقة تركت في ذهن الموسيقىّ وهو نائم أثرًا عميقاً . ولما استيقظ عادت إليه الذكرى من شدّة وقع الصوت في نفسه ، فأمسك « الكمنجه » وشرع يحاكي تلك النغمة حتّى جاءت مطابقة للأصل ، وكان من أمره أن ابتدع قطعة موسيقيّة سمّاها « عزف الشيطان » . ولولا أنّ تارتيني عبّر عن ذلك الذي هبط عليه في منامه بأنّه شيطان لتوسّمناه ملكاً ، ولقطعنا بأنّ السرّ الذي وصل إلى خياله نوع من الإلهام في الصنعة التي اشتهر تارتيني بها .  
ومن تعلق ذهنه بأمر لا تهاده الوساوس والأخيلة في شأنه

مستيقظًا كان أو نائمًا . حتى لقد رأى بعضهم فيما يرى النائم أنه يقاسى من العذاب أشده ، ولما استيقظ تبين له أن رجليه لامستا شيئًا حارًا . وكثيرًا ما يُخَيَّل له حلمه المفزع أن كابوسًا يضايقه ، ثم يعرف سبب ذلك أنه كان نائمًا على جانبه الأيسر ممثلي المعدة بالطعام . ومفسر الأحلام يطلعون الحالم على نوع العمل الذي بات ذهنه مشغولاً به . فقد رُوي أن مملوكًا مثل بين يدي سيده الملك مدهوشًا . وكاشفه بأنه رأى في منامه أنه يسفك دم الملك ، وأقام له الدليل على أنه خادم أمين ، ففزع الملك مما قصته عليه وقال له : « لو لم تكن فكرت وأنت مستيقظ في شيء من هذا ما رأيت في الحلم » ، وأمر به فقتل . تهيأت للنوم يوماً وتباريح الحزن تناوى ذهني لوفاة ابن لي ، فرأيت في الحلم كأن حادياً يغنى بصوت المحزون ، فبكيت ثم استيقظت وعيناي مفرورقتان بالدموع .

وكما يمرض الخيال للنائم يمرض للمستيقظ ؛ والقارئ متى فرغ من قراءة بعض الحوادث المفزعة . يفوص ذهنه في بحر من الخيال لتصويرها . وإذا أخذ مجاسه في مكان هادئ ، وتشاغل عن شئونه ، وسمح للخيال بالجولان ، فسرعان ما يسرح في الفضاء ، ويبنى القصور في الهواء ، ويسلّي نفسه بإدراك الأمان ، وعدوه المبين هو الذي يقطع سلسلة هذا الخيال الشهي .

ومن الناس من يصوغ الخيال قضاء لأربه ، ثم ينقلب مزاجه فيحسبه صدقًا ، فإن أشعب كان يؤلمه أن يجري الصبيان وراءه مُصنّعين استهزاءً به . رآهم على هذه الحال يوماً ، وأراد أن يصرفهم

عنه ، فالتفت وقال لهم على سبيل الخيال : « ألم تعلموا أنّ في جهة ...  
ثريًا يسدى المال إلى كلّ من دخل منزله » فتركه الصبيان وأسرعوا  
إلى منزل ذلك الثرى . فلما رآهم ذاهبين إليه وقع في نفسه صدق  
هذا الخيال فمقّبهم .

حاجة العالم الى  
الخيال

والطبيعيون يعتقدون أنّ الخيال دليل الباحثين ، ولم يمهّدوا  
منقبًا وصل إلى حقيقة مجهولة إلا بعد حدّس وتخمين . والناس على بكرة  
أبيهم يرون البخار الصاعد من القدر الغالية بقوة ترفع غطاءه مهما كان  
ثقيلًا ؛ ولكنّ وات Watt وحده بما أوتيّه من بارع الخيال استنجد  
بهذه القوة لإدارة الآلات فنجح . ويتخذ الرياضيون والسياسيون  
طرقًا فرضيّة لحلّ المشاكل ، ثمّ يحسّبون نتائجها ويدخلون بها في طور  
العمل على سبيل التجربة ، ولا يزالون يتخيّلون الوسائل ويمحصونها  
من الشوائب ، وينصرفون عمّا تجرّأ إليه من الخطأ ، فإذا الحُجُبُ  
تتكشّفت عن مكنون الحقائق .

الحقيقة صناعة الفلاسفة يحرصون عليها في مدوّناتهم ، وينتقون  
لمدلولاتها العبارات المتينة التي لا تدع للبس مجالًا ، ويحترسون من  
تزييق الألفاظ وتنميق الأساليب ، فإنّهما يبعدان عن فهم المقصود .  
وهي كذلك أساس المعاملات ، فالتاجر لا ينصف المشتري إذا بالغ في  
وصف سلعته وجاوز به حدود قيمتها ، والطبيب يسيء إلى المريض  
إذا استعار للدواء اسم دواء يشبهه ، وتضييع الثقة من المؤرّخ الذي  
يمجد من لم ترفعهم أعمالهم . وكم تشور الفتن ويضطرب بين الحلفاء حبل

الولاء إذا راج سوق الخيال في نصوص المعاهدات ، فإنه يخرج مدلولات الألفاظ عن سياج المعاجم اللغوية ، وإليها وحدها يرجع الأمر عند ما تستحكم حلقات النزاع .

حاجة الأديب  
إلى الخيال

أما الأدباء فبلى عكس هؤلاء ، لا يعذب عندهم ماء القول إلا إذا طرق أبواب المجاز والاستعارة في أمور تحتاج إلى الفراسة وصدق النظر . ورد في هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأزواجه : « أطولكن يداً أسرعكن لحاقاً بي » ، فلما مات عليه السلام جعلن يطاولن بين أيديهن لينظرن أيتهن أطول يداً ، ثم كانت زينب أسرعن لحاقاً به وكانت كثيرة الصدقة ، فعلمن حينئذ أنه إنما أراد المعنى المجازي . وكذلك قول المتنبي :

راميات بأسهم ريشها الهدى ب تصيب القلوب قبل الجلود  
فالمطلع على الشطر الأول لا يدري إلى الحقيقة سار الشاعر أم  
إلى المجاز ، ولا يكاد ينتهي من قراءة الشطر الثاني حتى يعرف أن  
الغرض بالأسهم تلك العيون النجلاء على سبيل التجوّز .

فالخيال يصون الصنعة من الابتذال ، وينفخ في القول والعمل  
روحاً فياضة ، ويشحذ الذهن ، ويدعو إلى الإيمان وترداد النظر ،  
ولو جفّ معينة من الكتابة أو الشعر أو التلحين لذهبت مسحة البلاغة ،  
ولتجردت من العوامل الحية في تحريك الهمم وإثارة الخواطر . كان  
ابن الروميّ وحيد عصره في الشعر . فقال له بعضهم : « لِمَ لا تشبهه

تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه . فقال : « أنشدوني شيئاً من شعره » فأشده في الهلال

وترى الهلال كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر  
فقال : « واغوثاه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك يصف

ماعون بيته وهو ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف »

فما أوج الخيال البليغ إلى المرثيات يستحضرها الشاعر ويصوغها  
بحسب اقتداره ومهارته في الصناعة ، بحيث يجمع الأشكال المتشكلة  
في سمنط ، ويسبل عليه ثوباً قشيباً من البلاغة تهتز منه النفس فرحا  
إليك حمدونة الأندلسية ذهب بها الخيال عند وصف الحصى  
في الوادي مذهباً أجادت فيه وبرزت إذ تقول : —

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

ووصف المتنبي صبره وأجاد في خياله حيث قال : —

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

وأبو العلاء المعري وهو كفيف البصر ، قبس من نور الطبيعة

ما جعل ذهنه سيّالاً في سبك الخيال بدرجة يعجز عنها المبصرون .

وشعره حافل بمثل هذا الخيال الرائع . وقد راقني تشبيهه البرق في سرعة

تألقه بذى العين القريحة وقد غلبه النوم ، يفتحها بدافع المرض ويغلقها

حباً في النعاس ، وهكذا يتعاقب الفتح والإغلاق على وجه السرعة .

ووصف طلوع الفجر بالشيب ، والشفق بالزعفران ، وادّعى على سبيل

الخيال أن الليل يميل إلى النجوم الزهر ، فلما شاب بطلوع الفجر ،  
خاف هجر النجوم والهجر شيمة الفواني ، فوارى شبيهه بخضاب الزعفران  
أى الحمرة التى تبدو مع الفجر . وخياله من السلاسة والغرابة يجرى على  
هذا النسق ، مع أنه كُفَّ بصره وهو فى الرابعة من عمره ، وهذه المدة  
على قصرها زوّدتة بالمشاهدات ، فلبث يستمدُّ منها فى شعره طوال عمره .

#### ( ٤ ) العقل

هو ملكة تدبّر الحركات الإرادية من أى نوع كانت . وقد فصّلنا  
القول فى أن الفرائز تُهيمن على الجسم وتقود الإنسان ليعمل العمل  
بلا روية ، وتكون غالباً نتائجها سديدة مفيدة ، ولكن الخلقيين  
لا يعولون على هذا النفع ، ولا يثيبون الإنسان من أجله ، لأنه جاء  
مصادفة لا من طريق المقدمات المنطقية . وذلك كاندفاع من لا يحسن  
السباحة إلى البحر لا تتشال مُشرف على الغرق ، وكسمى الأم لتخليص  
ابنها من مخالب الخطر .

وقد بذل دارون جهده مثبتاً بالمشاهدة أن للحيوان الراقى عقلاً  
مستفاداً من الخبرة الذاتية وإن يكن أدنى من عقل الإنسان . رأى  
فى حديقة الحيوان بأمرىكا قردين فى قفص واحد : أحدهما مسنٌّ  
والآخر صغير . وكان المسنُّ لا ينفكُّ يؤذى الصغير كلما بصر به ،  
وأينما التقى معه . وبينما كان الحارس يكنس القفص انقضَّ عليه القرد  
المسنُّ والتقم ففاه ، وكاد يذيقه الموت لولا أن خلّصه منه القرد الصغير ،

فقد عضه في ساقه عضّة أنسته صوابه ، وأرجعته عن العدوان . إذا التمت سبب هذا تبين لك أن إشفاق القرد الصغير ليس من مجرد رؤية القرد الكبير يفترس الحارس ، بل لا بدّ أن يكون فكره قد صاغ من مستودعات الحافظة قضايا هي أن القرد المسنّ اعتدى على شخصه من قبل ، واعتدى على الحارس الآن ، فهو مؤذٍ معتدٍ يجب الخلاص منه . فلما حانت الفرصة وشغل القرد المسنّ عن نفسه هجم عليه القرد الصغير ، وانتقم منه انتقاماً يدلّ على أن إرازه ليس غريزياً ، وإنما أراد ذلك ليقفه عند الحدّ الذي تتطلبه دواعي الاجتماع .

تدرج في تأليف  
القضايا

فهذه القضايا التي ارتبط بعضها ببعض قد أثارها إحساسه ووجدانه الشخصي والاجتماعي ، وهي كالقضايا الأولية التي نشاهدها في الطفل . نراه يمسك اللعبة بإحدى يديه ، وإذا رأى مع غيره لعبة أخرى يبكي ، وإذا أعطى إياها يسرّ . فنفهم من هذا قضية بسيطة هي أن نفسه تشتاق الكلّ أكثر من الجزء ، وتعلم أن الجزء أقلّ من الكلّ قيمة ومقداراً وإن كان لا يتنبّه للتعبير عن ذلك . نراه إذا أراد القعود وألزمته الوقوف يبكي وينزع إلى القعود . فكأنه صاغ قضية مضمونها استحالة اجتماع الضدين : القيام والقعود في زمن واحد . نراه ينازع غيره في المكان الذي يريد القعود فيه ، لأنه يعلم أن الجسمين لا يملآن في مكان واحد . نراه يمشي إلى الشيء الذي يريد ، لأنه يعلم أن الوصول إليه ممكن . نراه يسأل عمّا لا يعرف ،

ومتى شُرح له سكت واقتنع ، لعله أن للأشياء طبائع وحدوداً ومميزات . ونراه يسأل عن فاعل الفعل ، ولا يقتنع بأنه جاء بلا فاعل وهكذا . ومتى كبر استعان بتلك القضايا البديهية على صوغ القضايا النظرية ، وحاول إبداء الحكم فيها . ومتى اتسع نطاق عقله ، وازدادت مراسسته ، تجده يتدد ولا يتسرع في الحكم ، بل يعرضه على بساط البحث ، ولا يؤمله أن يوسمه الناس انتقاداً ، ولا يتمعض إذا جاء حكمهم مخالفاً لحكمه ، وظهر رأيهم فيه أضبط ، وحكمهم أسد ، لأنه حينئذ يهته الوصول إلى الحق ، ولا يبالي أو وصل إليه بنفسه أم شاركه غيره في تمحيص المسائل ، وإزالة غشاوة الباطل عنها .

وهكذا يصوغ العقل بمونة الملكات الذهنية ما شاء من القضايا العامة المستنبطة من المحسّات ، ويحتفظ بها ، ويذكرها عند الحاجة . فما أوسع الجمجمة على صفرها ؛ لأن العقل جمع بها شوارد المسائل ، حتى يصحّ أن يقال : إن الإنسان طائش بعقله في جوّ روحانيّ فسيح الأرجاء . وإذا كان في هذا مُثار دهشة التأمل ، فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صفرها تسع ألقا من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف .

## ( ٥ ) الوجدان

إنّ المحسّات التي تصل إلى الذهن إمّا أن تدعو إلى الفرح والجدل ، وإمّا أن تدعو إلى الغم والملل ، وهذا الأثر هو ما نسميه بالوجدان .

سل ضميرك لما إذا يتسرّب إليك السرور إذا قابلت صديقاً  
حميماً . وسل الممود لما إذا يمتعض من الغم ، وتظهر على محيّا ملامح  
الكآبة . ولو التمت سبباً لذلك لوجدت أن الارتياح في الأمر الأوّل  
والألم في الأمر الثاني كفيلان بهذه النتائج .

نم للعقل شأن كبير في ترجيح وجدان على آخر ، لأننا نرى  
الطفل إذا مرض ونصحه الطبيب أن يتعاطى الدواء يأنف أن يلبي  
الطاب ، لأنّ العلاج له طم مهووع لا تسيغه نفسه وليس لعقله  
سلطان عليها .

ولكنّ الرجل الذي يقدر الأمور بمواقبها ، لا يجعل للطم المهووع  
نفوذاً على وجدانه ، فيقبل على تنفيذ إرادة الطبيب عن رغبة فيها ،  
لأنه يتقي به وطأة المرض ويدفع به غائلة العلة .

وقد يسود المزاج النفسى حكم العقل ، فتجد المتطير يحزن  
مما اتفقت العقول على أنه داعى الفرح . قال المعري وهو من غلاة  
المتطيرين :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة      وحق لسكان البسيطة أن يبكوا  
تخطنا الأيام حتى كأننا      زجاج ولكن لا يعادله سبك  
ولأبي الطيب المتنبي :

تصفو الحياة لجاهل أو غافل      عمّا مضى منها وما يتوقّع  
ولن يغالط في الحقائق نفسه      ويسوقها طلب المحال فتقطع  
ونجد المتفائل يفرح ممّا يحزن منه الناس غالباً ، وتنطبع طلائع

البشر على صفحة وجهه ، وتصيبه الحوادث الجسام فلا تلتوى قناته ،  
ويسالمها ليستخلص منها نفسه نصائح وحكم وعبرا . ولا يعبأ بتقلبات  
الأيام ، لأنه يعتقد أن الدنيا مسرح تغدو عليه الناس وتروح ، ولكل  
امرئ منهم شأن يطلبه ، حتى إذا أرخى الليل سدوله نامت العيون ،  
واستراحت النفوس . وإذا انتهى العمر استعاض عن هذه الحياة  
حياة أبقى وأهنأ .

هذي الحياة رواية لمشخص الليل ستر والنهار الملعب

ولا تجد مظهراً لترداد الفرح والحزن متعاقبين كطلعة المقامر ،  
يخسر الصفقة فيكتب من ألم الحزن ، ويربح بعد ذلك فيبش من  
بسطة الفرح ، ويستطيع الناظر أن يعرف هاتين الحالين بمجرد  
الاطلاع على وجهه . وبذلك نطق لسان الشمر فقال :

« نظر المدوّ بما أسرّ يوح »

« متى تك في صديق أو عدوّ      تخبرك الوجوه عن القلوب »  
« والعين تعرف من عيني محدثها      إن كان من حزبها أم من أعاديها »  
« الودّ لا يخفي وإن أخفيته      والبغض تبديه لك العينان »  
« لا تسأل المرء عن خلائفه      في وجهه شاهد من الخبر »

وللبارودي

ربّ خلّ تراه طلق المحيّا      وهو جهم الضمير بالأحقاد  
فتأمل مواقع اللحظ تعلم      ما طوته صحائف الأكباد  
إن في العين وهو عضو صغير      لدليلاً على خبايا الفؤاد



الدهشة ، وتدلُّ الرجفة على الفزع ، وربما بدأ الضحك عند الاحتقار أو الضغينة ، وصادق النظر لا يخطئه ، لأنَّ تكلفه يُخرج الصوت فائراً مكذوباً . وأحياناً يحصل البكاء من فرط السرور

يا عين قد صار البكاء لك عادة تبكين من فرح ومن أحزان  
وديب الأقدام يرشد كذلك إلى تعرف أحوال النفس . فخطا  
اللس والجبان والشجاع والمجرم تخبر عن الحقيقة ، حتى لقد عرف  
لازوغلي<sup>(١)</sup> كيف يصدر حكماً عادلاً في حادثة خفي فيها المجرم : أمر  
المشتبه فيهم فأحضروا ، ودعاهم جميعاً إلى دخول مجلسه والخروج منه  
عدّة مرات وتفرّس في أمرهم ، ثمّ استدعى واحداً منهم وحصر فيه  
التهمة وما أخطأ ، لأنه رآه آخر الداخلين إذا دخلوا . وأول الخارجين  
عند ما يخرجون . وللمتحمسين للآثار دراية دقيقة في هذا الباب  
كذلك تُعربُ نبرات الصوت عن كثير من الأغراض كالحماسة  
والفخر والخضوع والاستمطاف والخوف . وللأمهات الذكيات معرفة  
بأحوال الطفل يستطلعنها من صوته عند بكائه ، فإنه يعربُ أحياناً عن  
امتعاض من ألم أصابه ، وأحياناً يرشد إلى أنه جوعان أو عطشان .  
ولقد أجاد المتنبي إذ يقول : —

إذا اشتبهت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكي

(١) هو ممن خدموا محمداً علياً باشا والى مصر واقتدوه بالأرواح . وهو الذي دبر القضاء على الماليك في ساعة واحدة .

تختلف الحركات  
الجسمية عن دلائل  
الوجدان

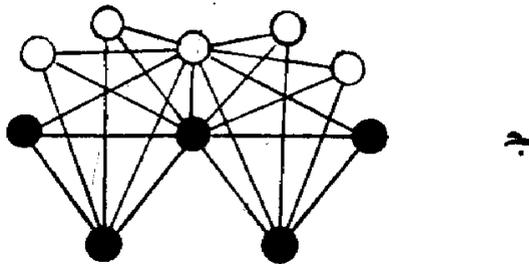
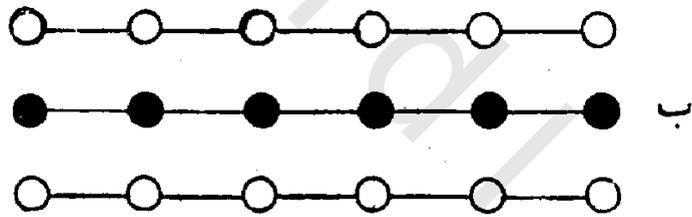
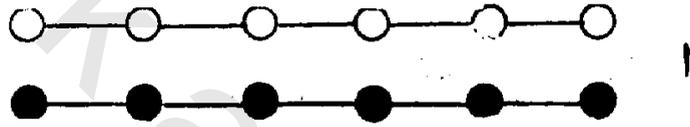
هذه الأعراض البدنية النفسية متلازمة غالباً . وقد تختلف عند كبار المفكرين الذين يضبطون حركاتهم ، ويخضعونها للإرادة . فترام يضحكون في معرض البكاء متعاقبين عن دعوة الوجدان ، وكذلك تختلف عند البله الذين يجهلون حقائق الأمور

روى التاريخ أن أبا مسلم الخراساني — وهو الرجل الفذ الذي أتمت الدولة الأموية وأحيا الدولة العباسية — كان لا يلمب بقلبه السرور ، ولا يستغزه الغضب ، يأتيه نبأ الفتح العظيم فلا يظهر على محياه أثر السرور ، وتنزل به الفوادح فلا يرى كثيباً . كذلك كارلايل وصَفَ بيرنز الشاعر بأن المصائب كانت تُصَبُّ عليه مدراراً . فينثرها عنه كما ينثر الجواد الماء عن شعره . ولا أنكر عليك أن التصنع من هذا القليل مخالف للطبيعة البشرية ، ومهما خضع الإنسان لتصرفات الإرادة فإن الحقيقة التي اختفت في الصدور توشك أن تظهر دلائلها وإلى هذا يشير الحديث : « من أسر سريرة ألبسه الله رداءها » ، حتى إن المجرمين يقتفون الآثام بعيدين عن أعين الرقباء ، وأنفسهم وحدها هي التي تفضح ما كتموه

وبعيد عن الكاتب البليغ ، والشاعر المطبوع ، والمصور الدقيق ، أن يصيبوا كبد الحقيقة في التأثير النفسي ، ما لم يدرسوا العواطف والحركات البدنية الملازمة لها ، والمؤثرات التي من شأنها تحريك الهمم الفاترة ، والعزائم الخامدة .

إذا عرفت هذا سهل عليك معرفة التلازم بين الحركات الفكرية

والجسمية، وقد صُوِّر هذا التلازم بأمور: فإما أنه سلسلة من الحركات الفكرية التي تضم حركات الإدراك والوجدان والإرادة والحكم والإنفاذ، ويقابلها سلسلة أخرى حسية تنجم من تأثير المنظورات في الحدقة والشبكية ثم في أعصاب البصر والخلايا المخية فالغلاف الأسمري الحساس، ثم يتدلى إلى أعصاب الحركة فالمضلات فالأعضاء المنفذة كما في أمن هذا الشكل؛ وإما أنه سلسلة من الأمور الحسية يتلوها من الجانبين نظام روحي، كأن الحس بحر ذو شاطئين من القوى



○ للخلايا الروحية  
● للخلايا المخية

الروحانية كما في ب ؛ وإما أن العاملين : الحسى والروحانى يعملان معاً في آن واحد ولا فاصل بينهما ، غير أن التأثير ذو وجهين حسى<sup>١</sup> ويؤثر في الجسم ، وروحانى<sup>٢</sup> ويؤثر في العقل كما في ج

## مذهب هر بارت في القوى الذهنية

اتبعت فيما سبق شرحه مذهب الساف في أن الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والفكر كلها مَلَكَات . وأذكر هنا - تكميلاً للفائدة - ما ذهب إليه هر بارت ؛ فإنه اعتقد أنها إذا كانت مَلَكَات أمكن كلاً منها أن يقوم بنفسه ، ولكننا حين نعالج الحفظ مثلاً نسمى لتقويم الملاحظة والإحساس والخيال والفكر ، وحين نريد تقويم الخيال نتطاع إلى تقويم القوى الأخرى ، لذلك اختار أن يسميها صفات ليستفاد منها معنى المشاركة . ووراء ذلك اعتقد أن المنح<sup>٣</sup> يحتوى على قوتين فحسب<sup>٤</sup> : قوة التأثير بالمحسّات ، وقوة دموع المدركات .

فقوة التأثير بالمحسّات تولد منها المعانى والأفكار على نظام طبيعى . فإذا ائتلف جديدها وقديمها ارتبطا معاً ورسخا في الذهن ، وإذا تنافرا عارض أحدهما الآخر . وأفضى ذلك إلى بقاء الأنسب . وقوة دموع المدركات مثلها كمثل قوة هضم الأغذية ، فكما أن الطعام بهذه القوة يستحيل إلى دم ، كذلك المعانى بتلك القوة تتأخى وتنازر ، ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمتزج معاً في مادة معنوية ، يُسيفها الذهن ويمتصّها المنح<sup>٥</sup> كما تمتص الإسفنجية الماء ، وتوقف عليها

الحياة العقلية ، وبها تفاوت مقادير الأشخاص . والذهن حينئذ بمعونة الحواس يدرك العالم الخارجى ، ويستعين بسابق خبرته على تمحيص الأمور . إنَّ منظر البلد من بعيد يراه الشاعر والنباتى والمصوّر ، ولكن مدركاتهم عنه تفاوت بحسب ما ركز في ذهنهم . والشمس في طور الكسوف لا تترك في ذهن الطفل ما تتركه في ذهن العالم ، الذى يصوّب إليها نظره ويتريث حتى يستذكر ما قرأه عنها ، فيعرف أنّ القمر حال بينها وبين الأرض في أثناء دورانه فحجب ظله ضوءها عنها ، وهى في ذاتها لم تتغير ، وهى وحركات الكواكب خاضعة لقوانين يعرفها الفلكيون ويميّنون منازلها بالحساب الدقيق ، ويبنى المنجمون عليها أحكام السمود والنحوس . نعم لا يقف ذهنه عند هذا الحد فقط ، بل يتجاوزها ، فيذكر عقيدة القدماء بأنّها كانت معبودا ، وأنّها لفرط سموها ، وعلوّ قدرها ، كانت الشياطين تحاول أن تفتصب نورها فتتوارى عنهم ، كما كانت تتوارى إذا انفرط فيما بينهم عقد المودّة والولاء ، معلنة عليهم غضبها بالكسوف . حدث التاريخ أنّ الميديين والليديين اختصما ، ودبت بينهما عقارب الخلاف ، فامتسقا الحسام ، وما نادت لظى الحرب تستمر بينهما حتى أظلم الجوُّ نهارا ، وابست الشمس ثوب الكسوف حدادا على ما فعلاه فاعتقدا أنّ إلهما غضبان من هذه الفتنة ، فأغمدتا السيوف ، ونشرا لواء السلم .

هذه الأفكار المتناسقة التى جادت بها قريحة المفكر عند ما أبصر ناظره الشمس في طور الكسوف ، ارتبطت لحتها بسداها ،

وكونت أمراً كلياً لبحث الشمس وجولان العقول البشرية في أمرها  
من أعصر السداجة إلى زمن العلم والمدنية .

## تداعى<sup>(١)</sup> المعانى

عرفت كيف تلتئم المعانى إذا تآزرت ، وكيف يدعو بعضها بعضاً  
لمناسبات تعرض بين الناس عندما يتجاوزون أطراف الحديث ، حتى إذا انتهى  
وبحثت عن الصلة التي بين آخر الحديث وأوله أخذ منك العجب مأخذه .  
جلست مع طائفة من أهل الأدب ، وكان الحاكي حينئذ يرتل  
آيات الذكر الحكيم . فمجبنا من براءة صنعه ، وحسن إيقاعه ، ومثانة  
نبراته . ثم فتح أحد الجالسين أبواب الاستطراد ، فسأل عن اللهجة  
التي كان السالفون يقرءون بحسبها . فإذا كانت صلتنا بهم في هذه  
الحال قد انقطعت فيجب علينا أن ننتهز الفرصة ، فنذكر في أسس  
الأبنية الأثرية أسطوانات الأصوات والأغاني المصرية ، لنقف  
الأجيال القادمة على الرقى الذي وصلنا إليه . واستطرد آخر بأن  
أغاني هذا الجيل هي من مبتدعات المجيدين الذين برعوا في الخيال ،  
فألفوا بين الإيقاع المصرى والتركي ، واختاروا من مزيجهما نغمات  
تسترقُّ النفوس . وقال آخر قد وصلت إلينا أدبيات العرب في الجاهلية  
والإسلام ولم تصل إلينا لهجتهم في الإنشاد ، ولا علمنا كيف كانوا  
يترنمون بالشعر وبالثر . وهل كان إبراهيم بن المهدي العباسي يُوقِعُ

(١) مأخوذ من تداعى الناس على فلان إذا تألبوا عليه واجتمعوا

الألحان على النهج الذى نظره الآن ؛ وهل كان المغنون إذ ذاك يرجعون الالفاظ ، ويكثرون دورانها على النغمات على عادة معنى هذا العصر ؛ وتكلم آخر فى علاقة اللغة العامية بالأغاني إلى آخر ما ذكروا ، ولم يكن يدور بخلد واحد منا أن مبدأ الحديث يصل بالجالسين إلى هذه الغاية . وهذا سرٌّ من أسرار تداعى المعانى .

رأيت من هذا البيان أن روح الحديث كانت دائرة حول موضوعات أدبية لعلاقتها بالجلساء وهم من أهل الأدب ؛ ولو جالست أناساً من أهل الترف والنعيم رأيت حديثهم فى المطاعم والملابس وركوب الجياد ؛ ولو أخذت مجلسك بين التجار رأيت حديثهم مقصوراً غالباً على البيع والشراء والسلع الرائجة والكاسدة وهكذا ، فالاستطراد لا يكون عامّاً بل جارياً على وفق الميول والأغراض التى تهتمُّ الجالسين ، حسية كانت أو معنوية ، وهى على العموم تتبع قانون المناسبات ، إذ يشمر الإنسان وهو جالس فى حفلة زينة أن ذوقه وأهبال الحاضرين يمنعه أن يستطرد بذكر حفلة مناحة . وللأغراض المتنوعة دوائر فى الذهن مكتظة بالمعانى المتشاكلية ، إذا عرضت طائفة منها أيقظت أشباهها وألصق الأمور بها من الدوائر الأخر . وقد ترد الالفاظ المحتملة للمعانى ، فيؤوّلها السامعون بما يلائم هوام على نهج أسلوب الحكيم . قالوا : إن القبعة ثرى كان جالساً مع أصحابه فى بستان تحت كرم ، ثم جرى ذكر الحجاج ، فقال القبعة ثرى : « اللهم سوّد وجهه ، واقطع عنقه ، واستقنى من دمه » ولما بلغ الحجاج ذلك استدعاه إليه وسأله

عنه ، فقال: « إنما أردت العنب ». فقال الحجاج يتوقده : « لأحملك على الأدم » (القيد) فقال القبعثري : « مثل الأمير يحمل على الأدم والأشهب » (الحصان) . قال الحجاج : « أردت الحديد » (المعدن) فقال القبعثري : « لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً » .

## الميل ومراقبتها

الميل مظاهر الشوق الطبيعي تجلّي في الطفل إذا ترنح في اللعب ، وأطلق العنان لحركته الإرادية . وقد أنصف روسو إذ كان يقف من وراء حجاب ويراقب الأطفال من كَثَب في أوقات لهوهم ، فيرى لهم حركات غريبة يفعلونها ، ويفتثون فيها ، وترتاح نفوسهم إليها ولو أخذ منهم الجهد مأخذه . تفقد ميولهم نحو المذوقات والمرئيات والمسموعات والملموسات ، وتفقدوها في الآراء والعقائد تجد لكل منهم شأنًا خاصًا يهواه ويتمصّب له ، ويقيم الدليل على رجحانه ، ولو اجتمع الثقلان على أن يحولاه عنه بدون إرادته ما نجحوا . نرى بين ظهرائنا أناسًا في طبيعتهم حذق لصناعة يفتل عنها المعلمون . ويحولونهم على الرغم من إرادتهم إلى غيرها فيهنزمون . وقد تلجى الضرورة شخصًا إلى الكسب من مرتزق لا مجال فيه لمواهبه فيعمله كالمسخر ، ويميش به كشيبيك ، ولا يظهر عنده إقدام على إتقانه ، فيتبادر إلى ذهن المشرفين عليه أنه ضعيف الذهن كليل القوة . ولم تمرّ بأمثاله الأيام والليالي في مدارج الحياة ، فإذا هذا الضعيف شاعر أديب ، أو كاتب

قدير، أو مؤلف متقن، أو مصور ماهر، أو عالم نحرير، أو خطيب مصقع. وقد ورد في الأثر «اعملوا فكل منسّر لما خلق له»

عرفت بين الطلبة زمن الدراسة الأولى من كان ينظم القصيدة التي تموج ألفاظها بالمعاني في ليلة واحدة، ولو كلف حل مسألة رياضية افترت همته، فكان يخيّل إلى المعلم أنه عاجز الفكر، والأيام وحدها أسفرت له عن شهرة نامّة في عالم الأدب. ومنهم من كان ذهنه يخرق حجب الأحاجي الرياضية، وكلما صعبت مراميها ووسائل الوصول إلى حلّها، زادها إمعاناً وسعيًا لكشف غامضها، وكانت مع ذلك تريحته تخمد دون كتابة النثر وقرض الشعر، فيصفه المعلم بأنّه كليل الذهن، مع أنه ممتاز في بابه

صحبت من الأمّيين رجالاً وحقق لي الاختيار أنّه حادّ الذهن حصيف العقل، إذا نطق استهوى عقول سامعيه بما يبتدعه من المعاني وما يزخرف من العبارات. هذا الرجل قد شغلته المحن، وصنابقتة أسباب المعيشة، ولو صادفته عناية المربين لأنجبت أديباً قديرا. وخبرّت آخر حرمة يد الإهمال ثمرة التعليم الصحيح، وكان لفرط ذكائه إذا عرضت أمور تستدعي دقة الحساب زاولها بفكره وكان جوابه قرين الصواب، وما يدرينا أن يكون هذا الشخص رياضياً منقطع النظر، لو وفق إلى مرشد بصير.

هكذا اقتضت إرادة الله تعالى أن يوزع النبوغ بين الناس لتتأكد الروابط الودية بينهم، وهذا سرٌّ من أسرار العمران. والنبوغ

كالنار الكامنة في الحجر تخرج منه عند قدح الحديد له ، وإذا لم يكن في الحجر نار لا تفيده الحديد شيئا

ليس من ينكر فضل الحريريّ صاحب المقامات المشهورة . فإنّ صيته ذاع حتى دعي إلى رئاسة ديوان الإنشاء في بغداد . فلما حضر إليه كآف أن يكتب في موضوع محدود فلم يجر لسانه ولا بنانه في قصيرة ولا طويلة . ذلك لأنّ ذهنه مطبوع على نوع روائيّ مسجع ، لا يشقّ له فيه غبار ، فليس بعجيب أن يفشل في كتابة ما لم يمرّن فيه نفسه من قبل ، وليس لديه نبوغ فيه . وكذلك الأديب المبرد وهو إمام في حلّ مشكلات اللغة العربيّة ، وله قدرة منقطعة النظير على فهم القرآن والأحاديث النبويّة ، كان يخطر له الخاطر فتعييه الكتابة فيه . وقد اعترف أنّه عرضت له حاجة إلى بعض إخوانه وأراد أن يكتب إليه فأحجم . ذلك أنّه رتب المعنى في نفسه ، ثمّ حاول صوغه بألفاظ تليق به فلم يستطع . فما أشبهه بحجر المسنّ يشحذ ولا يقطع !

هذا وقارئ التاريخ يستطيع أن يستشهد بكثير من أمثال هؤلاء الذين منحهم الفطرة مواهب بديعة في غضارة الشباب ، ونضارة الإهاب ، حفظتها لهم وديعة ، وسترتها عن العبث بها ، حتى سنحت الفرص فزكت وظهرت بشأرها . روى أنّ عبد الله بن الزبير وهو صبيّ كان يلعب مع إخوانه ، فرّ بهم رجل ففزعوا منه ، أمّا عبد الله فتقهتر واستنهض عزيمتهم بقوله : يا صبيان اجعلوني أميركم وشدّوا بنا عليه ففعلوا . كذلك مرّ به عمر بن الخطّاب وهو يلعب مع الصبيان

ففرّوا منه ، أمّا هو فوقف غير هيّاب ولا وجل ، فسأله عمر عن عدم فراره معهم ، فأجاب « إنّي لم أجرم فأخافك ، ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسّع لك » . هذه الشجاعة بدت من عبد الله وهو صغير ، فتمت فيه وهو كبير . وكان من أمره أن استقلّ بحكم المدينة ، وقامت بينه وبين الحجاج حروب دمويّة انتهت بقتله . وروى عن سير هرشل ( Herschel ) أن أباه علّمه الموسيقى في إبان صباه فماش بها ، ولكنّ ميول الشاب نهضت به فصار فلّكياً كشف « أورانوس » من بين الكواكب السيّارة ، واستدلّ على وجود كلف الشمس .

كذلك حدّثنا التاريخ عن لينوس ( Lennaeus ) أن أباه زجّ به إلى المدرسة ليتعلّم اللاتينيّة ، ثمّ إلى مصنع ليكون إسكافاً ، فلم يكن إلّا كعامّة الناس ، ولحسن الحظّ لقي من تفرّس في طبعه ميلاً لعلمى النبات والأعضاء فسدّده إليهما ، فبرقت فيه بروق النبوغ ، وأصبح نخراً لأُمَّته وللعالم . ولنا من سيرة نابليون بونابرت شاهد وعبرة ، فإنّه برع في الرياضيّات في غضون حياته الدراسيّة ، ولضعفه في الأدب وفي اللاتينيّة التي كانت شعار العلم في ذلك العصر ، وسمه المعلمون بالضعف وحكموا على عقله بالجمود . فكم بعدت أحكامهم عن محبّة الصواب . وكم شغلهم شئونهم عن مراقبة مميّزاته الكامنة فيه . وكم نطقت فعّاله التي كان يزاولها وقت فراغه بما ركز في فطرته من الميول . قال المؤرّخون : إنّ عاصفة باردة ثارت في الجوّ جمّدت ماء المطر فنزل ثلجاً غطّى وجه البسيطة وسدّ المنافذ ، فاستعان وهو صبيّ برفقائه على

أن يحفر الخنادق ويقيم الحصون ، ثم قسمهم طائفتين على تخاصم ، وأقام نفسه قائداً لحركة الهجوم ، واستمرّ النضال والجلاد خمسة عشر يوماً حتى ذاب الثلج ، فاندكت الحصون وصارت قاعاً صافصفاً ، فرجع هو ورفقاؤه إلى المدرسة ، طاورين في صدورهم تلك النزعة الحربية حتى جاء أوانها ، فنضجت ثمارها ، وفتحت لها الأيام صدرًا رحيبًا .

لشغل وقت الفراغ ، وعلم أن الطفل وقت فراغه تستولى عليه ميوله وتقود زمام عمله دليل الرغبة فيه ، حركاته ، إلى إنفاذ رغباته ، حتى إنه ليذهب إلى الشارع ، ويشارك أبناء السبيل في شئون اللعب ، مخالفًا نصائح أبويه ، وربما لبى أمرها قسراً ، ثم يشاغلها ويمود إلى نزعته كالخيزران . ونرى التلميذ يدخل بمحض إرادة أبيه قسم العلوم من المدارس الثانوية فيخفق ، لأن أباه تصرف في هواه جهلاً منه وانصرافاً عن المصلحة ، ثم يرجع التلميذ فيتخير لنفسه قسم الآداب فينجح . هذه الميول — وكل امرئ يضرب فيها بسهم — مثلاً كالمعطف يتعمده الصانع بترتيب وتنسيق يلائم الجسم ، وإذا ابدسه شخص آخر لا يوافقه .

المشوقات وقد نجح مهرة المعلمين في اتخاذ المشوقات سبيلاً يستحثون بها الميول الجامحة ، فيحبّبون القراءة إلى الطفل بما يعرضون عليه من الكتب ذات التصاوير المزخرفة الجذابة ، فيهم حباً بالقراءة . ويحبّبون إليه قراءة سير الرحّالين ، وأوصاف ما جمعه من علم نافع ، وأدب ناصح ، وثروة طائلة ، ومستكشفات رائمة . فكم قرأ ليقنّجستون ( Livingston ) أسفار الأسفار في إبان صباه ، وهو عامل في مصنع

نسيج ، ولفرط حبه لها ملاً بقراءتها أوقات الفراغ ، وكثيراً من أوقات العمل ، حتى أصبح رحالة طار الصيت ، ارتاد شقة واسمة النطاق من غربى إفريقيا .

درجت على كراهة الاغتراب وأنا ناشئ ، ولم أكن أعرف لذلك سبباً إلا احترام العادة التى عودنيها والدى . ولما قرأت قصص السندباد فى أسفاره الطريفة تفت إلى السفر ، وأول سفرة شرعت فيها وحققتها نزوحى إلى السودان وطول إقامتى به . فكان الله كتب على الغربية عن الوطن بعد ذلك ، فإنى ما أتممت فيه مدنى حتى يممت الأقطار الشمالية ، ولبثت فى إنجلترا زمناً آخر يقرب من الزمن الأول . ومن فرط تأثير كتاب « ألف ليلة » فى قرأته ، توهم الناس أن قرأته شؤم على من يجب الإقامة فى عقرداره .

## العوامل المورثة فى الأخلاق

- ( ١ ) الوراثية : العامل القهرى
- ( ٢ ) البيئية : العامل الاختيارى
- ( ٣ ) التربية : العامل الكسبى

### ( ١ ) الوراثة

لا ينكر أحد أن الوراثة عامل كبير لحفظ النوع ، غير أن من لم يمتد بها اعتبر أنها ليست خاضعة لقانون ثابت . فقد يرث الابن من

أبيه شبه عضو من أعضائه الظاهرة كسحنة الوجه أو أجزائه ، وقد يرث شبه عضو من أعضائه الباطنية كجهاز الهضم أو التنفس أو العضلات أو المجموع العصبي . والمشاييمون للوراثة يستشهدون من التاريخ لوراثة الحرف كالمصارعة والغناء ، ولوراثة الشيم كالشجاعة والأنفة وقوة الإرادة ، ويبنوا بالإحصاء أن الوراثة تكون في الجنون وطول العمر وحب الانتحار والانتقباض الغالب على النفس . وفي عالم الحيوان تجد حدة حاسة الشم وراثية عند الكلاب ، حتى إن بعض أنواعها يرث من أصله قوة لقنص معين ، وإن هنود شمالي أمريكا يتأثرون أعداءهم بمجرد الشم ، ويورثون أبناءهم هذه الخاصية . فإذا صحت مشاهداتهم ، وتمسكنا بعدم الوراثة في الأمور الكسبية فإننا نجد هذه المميزات من الفرائز ، وما يورث فيها إنما هو الاستعداد لأداء تلك الخاصية على شريطة أمرين : سلامة الأعضاء الكفيلة بأداء هذه المميزات ، والتمرين المبني على المحاكاة ، أما إذا ضعفت الصحة ، أو كانت الأعضاء بمعزل عن التمرين الصحيح ، فإن زاوية الخلف بين الفرع وأصله تنفرج .

وصفوة القول أن الحيّ تؤثر فيه الفواعل الخارجية ، فإذا تكرّر تأثيرها فيه وفي نسله تكراراً لم تشبه عوارض ، فإن الوراثة تجري في النوع كما تجري العادة في الفرد ، وينتقل منها في الفرع شيء وراثي ولو قليلاً . هذا الرأي يقربنا كثيراً من مذهب أرسطو أن للإنسان روحين : حيوانية وتخضع لقوانين الوراثة ، ومَلَكيّة وهيئتها

الاستعداد للاستفادة من التمرين .

وإذا كان تطرُق عامل الشرِّ إلى الطفل بحكم الوراثة فهيرياً ،  
وورث من أبويه أعضاء مريضة ، فهل يستطيع المعلم أن يقوم  
اعوجاجه ؟ وإذا سيق رغم إرادته إلى الإجرام أفيتترك شأنه أم  
يجب بذل الوسع في إصلاح نفسه بالطرق الصناعية التي جنى الفلاسفة  
نمارها ؟ وقد قلت الجرائم في الممالك التي شيّدت مدارس الأحداث  
يشغلونهم بتعلم الحرف عن العيث بالفساد .

## ( ٢ ) البيئته

الوطن الأوّل للطفل هو بطن أمّه ، وحينئذ لا تكون له حياة  
مستقلة بل تابعة للجسم الذي استقرّ فيه . فإذا عُنيَت الأم بصحتها  
نما واستكمل خلقه ، وخرج إلى منفسح الوجود كامل الاستعداد ؛  
وإلا فقد أساءت إلى نفسها وإليه وربما أجهضت . ومن ضروب  
الإهمال في مراعاة صحته حينئذ حماها العبء الثقيل ، أو تعاطيها الغذاء  
الغليظ ، أو حشوها المعدة فتضغظ جسمه وتشوّه أعضائه . وكذلك  
ذوات الأمراض العصبية وحادّات المزاج وذوات الوسواس يلدن  
شواذ الخلق غالباً . حكى أن صاعقة سقطت على قرية فشاهدتها  
حامل عصبية . فسقطت منشيأ عليها ، وانقبضت أحشاؤها فأصاب  
الضغط دماغ الجنين فأفسد مركز عقله . والحكيم توماس هوب<sup>(١)</sup>

نسب ما فيه من خلق الجبن إلى ما لقيته أمه من الأهوال وهو جنين في بطنها . فإن العمارة الإسبانية (أرمادا) كانت حينئذ تطوف حول سواحل إنجلترا وتهدها .

وبعد ولادته يكون وديعة بين يدي مربيته ، تصرف فيه بما أُوتيت من رحمة وشفقة ، أو قسوة وجبروت . تُهمله من الرعاية فيتساقط الذباب على عينيه ويؤذيها ، ويهبط على شفثيه فيسقيه سمًا زُطافًا ، وأكثر الأثمات يجهلن ما يلائم نموه ، وما أشدَّ إبداء الصديق الجاهل ! يسىء من حيث يريد الإحسان . تراهن يلاطفنه ربنا<sup>(١)</sup> على ظهره ، أو نكشًا لشعر رأسه بالإصبع في موضع واحد ، لإزالة ما عسى أن يكون به من الهوام ، فيناله الأذى وهن لا يشعرون . وقد يقيدن استقلاله بالتقييط ، أو يمنعه من مشاهد الطبيعة الرائعة ، أو يقلان عرض الأشياء السارة عليه فيقضين عليه قضاء لارجاء معه .

### البيئته الطبيعية

للإقليم والمناخ تأثير ظاهر في الأجسام والأخلاق ، فساكنو الأودية ليسوا كسكان الجبال في صفاء الخلقة ، ورصانة العقل ، ومتانة الجسم . وسكان الأقاليم المعتدلة أطف خلقًا ، وأبهى جمالا ، وأوفر حصافة ، وأكثر حبًا للصناعة ، وأشدَّ إكبابًا على العلوم ، وهم في الحقيقة

(١) ضرب اليد على جنب الصبي قليلا لينام

أهل الحضارة والإمارة والذوق الحسن والاختراع المفيد . ذلّوا العالم الأرضي والمائي والهوائي ، ولهم كل يوم فتوح علمية رشيدة ، وبدائع فنية جديدة . وسكان السواحل أذكاء لتمتعهم بمناظر البحار ، ولاعتمادهم على لحوم البحر غالباً وفيها الفسفور الذي يساعد على الذكاء . وهم فوق ذلك أهل جدّ يجيدون السباحة ، ويتجشّمون الأسفار البحرية ، ويتسّمون رياحها المنعشة . والعرب مطبوعون على الشعر لاستقلال أفكارهم ، وقناعتهم بشطف العيش . وغزارة ملكة الخيال فيهم ، وامتداد أعينهم في ساحة مترامية الأطراف ، تحت سماء صافية الأديم ساطعة الكواكب . كل هذا أوحى إليهم من بدائع الخيال ما أوحى . والبدو مشهورون بالكرم وبالاستقلال وبالشجاعة ؛ مشهورون بالكرم لأنّ قفر بلادهم حبّب إليهم المهاجرة فساروا في البوادي المجردة من الأسواق ، وربما نفد من أحدهم الزاد والماء فيجد من الصدور الرحبة ما يُقرّ عينه ، ويخفف عنه وَعناء السفر ؛ مشهورون بالاستقلال لما تمرّنوا عليه من القناعة والخشونة ، ينصبون خيامهم حيث ينبت الكلاء يسيمون فيه دوابهم ، وإذا زحمهم زاحم هجروه واستعاضوا عنه أرضاً أخرى بدون عناء ؛ مشهورون بالشجاعة لأنّ كل فرد يرنّ يديه على استعمال السلاح دفاعاً عن نفسه من مهاجمة وحش أو عدوان عاد .

أمّا المناطق غير المعتدلة فحيوانها شرس ضار فتاك . تجد في أدغال إفريقية الفيل النفور والأسد الضاري والتمساح المفترس والحية

السامة والذباب المؤذي ، وتجد أمثال هذه الحيوانات في آسيا الصغرى هادئة ، حتى إن بعض الدببة تحاكي الغنم في طاعتها للإنسان واستئناسها . ولا تكاد تجد بها هواماً سامة .

وقد أصاب ابن خلدون فنسب للسودانيين الطيش وكثرة الطرب والولوع بالرقص عند إيقاع الألمان ، وعال هذا بأن طبيعة الفرح انبساط الروح الحيوانية ، فالحرارة تهيج فيهم هذا الخلق ، كما تهيج المغتسلين في الحمامات . فإذا تنفسوا في هوائها الساخن امتزجت حرارته بنفوسهم ، فاهتزوا طرباً ومالوا إلى الغناء .

والمكان الخصب تتوافر فيه الخيرات ، فينغمس أهله في النعيم والترف ، وينشئون منكسفي الألوان بلداء . انظر إلى أنواع الحيوان المتشاكلة ، فإن ما يسكن منه القفر ومواطن الجذب كالغزلان والنعام والمها والزرافة وحجر الوحش أجمل مما يسكن الأرياف والمراعي الخصيبة في صفاء الخلفة ، وتناسب الأعضاء ، فالغزال أخو المعز ، والزرافة شبيهة بالبعير وهكذا .

## البيئمة الاجتماعية

يحتاج الإنسان إلى الرفيق للاشتراك معه في مهام الحياة المتنوعة ، فوجب عليه أن يقاسمه حبه ، ويحافظ على ولائه . وقد علمت من الفصل السابق أن الإقليم يؤثر في طباع سكَّانه . وأحياناً

تطراً الحوادث الجسام على هؤلاء السكان ، فتتغير أخلاقهم ويؤثرون في طبيعة الإقليم . فالعرب كانوا رعاة أغنام ، راضين من الحياة بعيشة الكفاف ، خاضعين لأحكام الإقليم عليهم ، فلما ظهر الوحي واتبعوا نوره ، انقلبت طبيعتهم فهجروا عيشة الكفاف ، واندفعوا في الممالك كالسيل الجارف ، ونصبوا أنفسهم فيها ملوكا . بيد أنهم لما تحضروا وعاشوا عيشة الترف ضعفت شكيمتهم ، وصاروا بعد العزة والمنعة أذلة خامدين . حكى التاريخ أن امرأ القيس شبَّ في قومه مترفاً ، عاكفاً على اللهو والخلاعة والفسق والسكر والعريضة والجلوس في مجالس أهل الريبة والنقيصة ؛ ولما وصل إليه نبأ قتل أبيه وهو على تلك الحال صدع ، فانقلب كيانه ، ونطق لسانه ، بهذا القول المأثور ، والشعر المنثور : « لاصحو اليوم ولاسكر غدا ، اليوم خمر ، وغداً أمر » ، وطوى صحيفة اللهو ، وانطلق في الفلوات طالباً الأخذ بالنار على عادة كبار النفوس من العرب . وقرأنا من أخبار الثورة الفرنسية الكبرى أن كثيراً من العصاة كانوا هادئى الأخلاق في زمن السلم ، فلما ثارت عاصفة الثورة انقلبوا كالوحوش الضارية ، وكان لبونا برت منهم أعوان مخلصون .

العقل كالجسم تؤثر فيه بيئة المعانى ويؤثر فيها . تبهره المحاسن فيتلقاها بالقبول ، ثم يصوغها من جديد صوغاً يلائم مزاجه ، لا فرق بين أن تكون هذه المحاسن من المنظورات أو المسموعات . قال أبو تمام :

وأحسن من نور يفتح الصبا بياض العطايا في سواد المطالب  
قيل إنه نظم صدر هذا البيت ثم أعياه القول فلم يستطع إتمامه ،  
ثم سمع سائلاً يستجدي بقوله : من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا  
فاستجاد قوله ، واستعاره منه ، وكمل هذا البيت . ترانى أجلس في  
حديقة تشدو بلا بلها وتسجع أطيارها على أفنان الأشجار ، والماء يمر  
بها فيسقيها ، والنسيم يحرك ساكنها فيشجها ، وأرى السحب فأناجيها  
بما ناجى به الشاعر الأندلسي :

كلّي ياسحب تيجان الربا بالحلي واجعلى سوارها منعطف الجدول  
فإن جلال هذه المشاهد يهز وجداني ، ويملك ناظري ، ويشحد  
تأملي ، ويوحى إلى الحافظة فتدخر منه ما تريد ، ويصوغ منه الخيال  
ما يشاء ، وما ظنك بخيال حقيقته براعة الصناع فأنطقوا الحديد ،  
وأطاروا المعافل ، وسيروا الأعلام في البحار .

وقد علمت أن الخبرة الذاتية خير مصادر العلم الصحيح . ومن  
ذا الذي يستطيع أن يستوعب الأمور كلها ؟ والعمر مهما طال قصير .  
وربما لا يهتدى الإنسان إلى معرفة الحقائق التجريبية إلا وهو في  
آخر مرحلة من العمر ، ويموت قبل أن يستفيد مما قضى عمره في  
الحصول عليه ، يموت ويترك المجال لشخص آخر يعيد الكرة لينتهي  
إلى مثل هذه النهاية ، مع أن الحقائق ينبغي أن تكون من مجهود  
الجماعات كل منهم يسدى إلى الآخر نتيجة عمله ليزيد عليها .

لذلك كان من متمات الإنسان أن يستعين آراء غيره ، ويتبادل

مع المفكرين نقد المسائل ، وبقراءة سير النوابغ ، مستعيراً منها العبر والنصائح ، والكتب خزائن العلوم ، جمعها المؤلفون بعد عناء وجهاد . فما أوفر السعادة لمن عكف على قراءتها ، وفهم أغراضها ، مستغنياً بها عن هذا العالم المكتظ بالأحقاد والنفاق .

تقضى ضرورة الاجتماع على الإنسان أن يدرس طباع معاشره محتكاً بهم ، فإن جهله بأخلاقهم يجره إلى أن يفتر بأحاديث أهل الخديعة فيحاسنهم حتى يذبحي أن يخاشنهم « وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مِّمَّاهُمْ » ، أو إلى أن يخشاهم فينقلب علمه جهلاً . وتقضى ضرورة الاجتماع على المدني ألا يكون عقله مجرد وعاء ترسب في قراره المعاني ، بل منبرياً للاستفادة من علمه وتجاربه في المصلحتين : الخاصة والعامة ، سالكاً السبيل التي تهينه لأن يكون عضواً عاملاً .

وقد تحقق الناس صدق الاجتماع فتعاونوا على ترقية وسائله ، وأسسوا الأندية للمباحث العلمية والاجتماعية ، فإذا قويت بينهم روابط الودّ ذلّوا الصعاب ، وقدحوا زناد المبتدعات النافعة

### السعي لاختيار البيئته

تنظر إلى النبات فيخيل إلينا أنه ثابت في مكانه ، ولو فحصت عن جذوره لعلمت أنها تتشعب في الثرى ، وتسيخ في أعماق الأرض طلباً للغذاء .

والحيوان والإنسان مفظوران على حب الانتقال من بيئة إلى أخرى ، ويشعران أن الحبس يقضى على السعادة قضاء ، ولذلك جعل أكبر عقوبة للإجرام قال المتنبي :

إذا صديق نكرت جانبه لم تُعيني في فراقه الحليل

في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من أختها بدل

إنَّ حبَّ الإنسان لنفسه يدعو إلى السعى وراء المناخ الصالح والجليس الصادق ، وإذا استوطن أرضاً يفضّل ناحية على ناحية ، وأناساً على أناس . ويمارس العمل وإذا وجد منه ضجراً هجره واستبدل به غيره . والمهاجرة — مع ما فيها من مفارقة الأهل والأصحاب — تهيم بها النفوس الأبيّة حبّاً في الثراء ، وطلباً لاجتلاء محاسن الطبيعة ، وشغفاً بروبة المتجدّات في عالم الصناعة ، والوقوف على أخلاق الأمم ، ودرس ما وصلوا إليه من العلوم . « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ »

نعم إنَّ النفس الرفيعة تجمع بالطبع من البيئة السيئة ، وتودُّ لو أن صاحبها يهاجر إلى حيث يطيب له المقام . وإنها كذلك إذا خاطر يوحى إليها أن التذرّع بالصبر أفضل ، وأنَّ الجهاد لإصلاح البيئة السيئة واجب تستدعيه محبة الوطن . عند ذلك تهبُّ من منامها غير هيابة ولا وكيلة ، لتعالج النقائص معالجة الطبيب الحاذق ، متذرّعة

إصلاح البيئة  
إذا ساءت

بما أوتيت من عزم ثابت ، وفكر ثاقب ، وإرادة صحيحة ؛ وكلما استعصت وسائل العلاج الناجع زادتها الرغبة إقداماً ونشاطاً . والنفس التي هذا شأنها خليقة بأن تتولى قيادة التعليم والتأديب .

إنَّ العلم النافع وطن للمفكرين أولى النفس السامية ، يتسلى به العلم وطن المفكرين من عاداه المناخ ، وأساء إليه الجليس ، خضعت لأحكامه أشتات الصناعات ، وأفاض من نوره شماعاً على عقول العاملين ، فاخترعوا المدافئ للوقاية من وطأة القرّ ، والمراوح لاختفيف الحرّ ؛ ورسموا - مستعينين به - مناظر بديعة رائمة ، جَذابة خلابة ، يتمتع برؤيتها المقيم في وطنه ؛ ودوّنوا الأغاني على صفحات الحماكي ، حتى أصبح في وسع الإنسان أن يسمع رنات المثاني ، ومناقشة الخطباء ، وعزف الآلات وهو بين أركان منزله . وعلى الجملة يتسنى لمن ركز العلم الصحيح في ذهنه أن يقلّب الأمور على وجوهها ، ويتخيّر أحاسنها ، ويتخذ من جحيمها نعيمًا يريح النفس ، ويجلو عنها صمداً الهموم . وبيئة العلم مع هذه المزايا لا تحتاج إلى ثراء واسع يعجز عنه المقلّ . ومن توافر لديه المال فلا حرج عليه أن يخرج من وطنه ليتفقد شئون الناس . ثم يعود إليه قوَى الجسم موفور العقل « وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَآغَمًا <sup>(١)</sup> كَثِيرًا وَسَعَةً »

### ( ٣ ) التربيّة والتعليم

إنّ المعلم كالفارس يتعهد الشجرة بضمّ عود مستقيم إلى ساقها  
لتنمو على الاستقامة . وإنّ الطفل كالغصن الغضّ فيه استعداد  
للاسترشاد بتجارب المشرفين عليه . ولأمة عليه الإشراف إلى السنتين  
من عمره ، ثمّ يشاركها الأب ويتضافران على إصلاح شأنه واختيار  
بيئته . وإذا بلغ السابعة من العمر استقبلته طلائع التكليف عند  
الحكومات النظاميّة فتجبره على التعلّم ، ولا يكاد يدرك سنّ البلوغ  
حتى يتكامل عقله ، ويسموبه وجدانه فتهيم نفسه بالموجودات ،  
ويستعين الخلطاء في فهم ما أشكل عليه منها ، ولا تزال خبرتاه :  
الذاتيّة والاجتماعيّة تزدادان ، وميوله ومطامعه تتضاعفان ، وكلّما  
مارس الصعاب وتقلّب على جمر الآلام ازداد صفاء ، وحقّق رجاء .  
وازن بين رجلين : أحدهما بدويٌّ قحٌّ قنوعٌ يشطف العيش ،  
عقله غفلٌ من زخارف الصناعة ، والثاني مدنيٌّ نشأ في حضن الحضارة  
والرفاهية حتّى قدر ذوقه على فرز ضروب المحاسن ؛ إنّ الفرق الذي  
يتبين لك بين هذين الرجلين هو أثر التربية الصحيحة التي ننشدها .  
وكم طالت العصور ، وانقضت الدهور ، ولم ينته البحث في طرق التعليم ،  
وما وصل الناس إلى أقصى غايات العلم ، وكلّما خطوا إليه ووردوا حياضه  
رأوه بحراً واسع الأرجاء ، جزيل السخاء . وأنت إذا قدرت ما وصلوا  
إليه في غضون ستة آلاف سنة اشتغلت فيها العقول فرادى وجماعات ،

تعلم أننا أدركنا منه غاية لم يكن أحد يتوقعها. فإن الفلسفة التي كانت فرائصنا ترتعد عند ذكر اسمها ، لاشتمالها على المسائل التي تحتاج من العقل إلى جهد وعناء ، أصبحت سهلة المتناول ، فاسترشد بها الصانع والتاجر ، واهتدى بها السائح والمنقب عن ماضي الإنسان والحيوان وحاضرها ، واستعان بها المعلم في استجلاء الفرائز والاعتداد بها في إيقاظ الهمم الفاترة ، والميول الطاهرة . وقد دؤنت ببطون الأسفار تجارب الحكماء من عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى العصر الحاضر . ولا يكاد القارئ يفرغ من قراءتها حتى تتجلى له الجهود التي سبروا بها غور العقل ، والخطوات التي تدرجوا بها لدرس أحواله النفسية ، وما أطول الأشواط التي قطعوها في سبيل البحث لإدراك مرامي الحقيقة ولا يزال المعلمون يعتقدون أن فواعل الوراثة عقبة في سبيل نجاحهم ؛ بيد أن لوك<sup>(١)</sup> وهربارت ضربا صفحا عنها . قال الأوّل : « إن عقل الناشئ كالصفحة البيضاء ، ينقش عليها المعلم ما يشاء ، والعادة والاختبار حاملان كبيران للنجاح ، ونحو ٩٠٪ من الناشئين قد شككتهم التربية فكانوا على حسبها محسنين أو مسيئين » . ولا أدري لما إذا لم يعتدّ بالوراثة مع أن آثارها ظاهرة لا تحتاج إلى برهان . واعتقد الثاني أن الأرواح عوالم مجردة من الاستعداد الوراثي ، وكلها متشاكلة من بادئ الأمر . والطفل الذي

(١) Locke لوك توفي سنة ١٧٠٤ عالم انجليزي برع في الطبيعيات

والطب وجعلها أساس أبحاثه في الفلسفة

يراد به أن يكون نابغة أو عبقرية يتوقف مصيره على المربي . اعتقد هذا وهو لا ينكر أن هناك أفراداً لا تنجع فيهم التربية مطلقاً مهما بلغت براعة المعلم .

إننا نعول في التأديب على القدرة الصالحة والانطلاق في ميدان التمرين والتجارب التي تهيب الجسم والعقل للجهد في سبيل الحياة جهاداً يتفق هو والميول والمصلحة في المجتمع الإنساني . نقتني أثر استعداد الطفل ونقف على حدوده لنتخذ منه مقياساً للطريقة المثلى . ونراقب البيئة ونتمتع مطالبها لنتخذ منها مقياساً لما نختاره من العلوم . على أنه لا يسوغ لنا أن نقتصر على مطالب البيئة الحاضرة ، بل ننظر إلى أفق من العلوم أعلى قدراً وأرجح وزناً ، لنبرهن على أننا أمة ناهضة . إن الضابط الذي يكفل لنا اختيار مادة الدراسة هو أن نفحص عن أهمية العلوم لأنفسنا ، فاجسمنا ولعقلنا ولنظام أعمالنا ولتثقيف وجداننا ولضبط أخلاقنا ولكل ما يساعدها على نيل سعادتنا حقوق لها علاقة وثيقة بحياتنا الكاملة ، ولا نعرف هذه الحقوق إلا إذا استوعبنا دراسة العلوم الموصلة إلى هذه الغاية ، والتي من أجلها شرع التعليم والتأديب . يجب أن ندرس العلوم لنتخذ منها سلاحاً نحارب به الرذائل ، ونحافظ به على الصحة ، ويجب أن نستنير بنبراس العلوم لنسترشد به في تحصيل القوت ، ولنعرف كيف نحافظ على ولاء المعاشرين واقتباس ثمرات مجهوداتهم ، وكيف نملاً فراغ أوقاتنا بمباشرة الفنون الجميلة التي نستمد منها الراحة .

## طريقة هر بارت

اشتهرت هذه الطريقة بين المربين بأنها تسير الميول النفسية والقواعد المنطقية والمآكات الذهنية ، فلذلك اعتد بها من يتصدى للتعليم الصحيح . يبتدىء المعلم فيوقظ عند الطفل الحقائق البديهية لتكون للدرس بمثابة مقدمة له ، ثم يتدرج إلى الحقائق الخفية ، سالكا في إيضاها سبيل النشوء من الجزء إلى الكل ومن السهل إلى الصعب ، ويصل حلقات المعاني بعضها ببعض قديمها وحديثها ، فتتألف منها سلسلة متماسكة الأجزاء ، ويسلك في تمحيصها مسلك الوضوح والجلء ، مبينا بالمثال مواضع المشابهة والخلاف ، ليتسنى له أن يستخلص من الأوصاف المشتركة ضابطا مختصرا ، إذا وعاه الطفل في ذهنه سهل عليه استذكار تلك الأمثلة التي عرضت عليه وهي في طور التكوين ، وسهل عليه بعد ذلك أن يطبق عليه كل ما له بتلك الأمثلة شبهة . هذا وكتب التعليم قد تكفأت بشرحها ويفيدنا الرجوع إليها عن التوسع فيها ها هنا .

## طريقة القرآن

قد نسب المربون إلى روسو فكرة إثارة التشويق في نفس

المتعلم . ونسبوا إلى هربارت فكرة اختيار تلك الطريقة النفسية المنطقية . ولو راجعنا التاريخ لرأينا طريقة القرآن تصدّت لهذه الأغراض ووفّتها حقها قبل وجودها بما يزيد على عشرة قرون .

قال تعالى في سورة الجاثية « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ؟ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . »

وقال في سورة الأعلى : « فَذَكَرْ إِن تَفَعَّتِ الذِّكْرَى » .  
ففي الآية الأولى وجه القرآن بأسلوب رصين ، أنظار المفكرين ، إلى المشاهد الطبيعية البديعة للاستدلال على ما لله تعالى من جلال وعظمة وقدرة . انظر كيف حثّ على التشويق ليدفع الناظر إلى اليقين بالإرادة لا بالفسر ، والقوة التفسيرية تقتضى الإلزام الوقتي ، حتى إذا فنيت عاد الأمر إلى وضعه الأول .

وفي الآية الثانية حثّ على جعل التذكير نافعاً ، تفهم هذا من صيغة الجملة الشرطية التي تقدّم عليها ما يفيد الجواب ، ولا يكون التذكير حقيقياً إلا إذا سلك مسلك الطريقة النفسية المنطقية .

ولو سرد المنصفون بالاستيعاب ، كل ما جاء في القرآن من هذا الباب ، لم يعجبوا من أنه منذ القدم آية من آيات الإعجاز .

إليك شاهداً من طريقة القرآن في سبيل محاربة شرب الخمر  
الذي فشا قديماً بين العرب وغيرهم ، وتعلقت به نفوسهم تعلقاً بمت  
الشعراء على مدبحه ، ووسّعوا مجال القول وبارع الخيال في وصفه .

جاء الوحي أولاً بهذه الآية : « وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ  
تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا » فرأى العرب أوامر القرآن تمشي  
مع ميولهم ، فأحبوا النبي وأنصتوا للوحي الذي نزل عليه ، ولم يقفوا  
معه موقف المعارضين . ثم جاءت الحوادث تترى فنزلت فيها الآيات  
بحسب مقتضياتها . شرب أحدم الخمر ، ونطق بفحش القول وهو  
يصلّي ، فنزلت هذه الآية : « لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى »  
فعرفوا أنّ الصلاة مناجاة لله ، وينبغي عند أدائها أن يشاركها الخضوع  
والتأمل ، فاستنكروا شربها في الصلاة فقط ، وهذه هي الخطوة  
الأولى في المنع . شربها أحدم فعربد واعتدى على آخر ، فنزلت هذه  
الآية : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ  
وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » . فاستحسنوا الامتناع  
عنها ، وهذه هي الخطوة الثانية في المنع . ولما تهيأت النفوس للنصح ،  
وتبين لها ما ينطوي عليه الوحي من المصالح ، نزلت هذه الآية  
التي حرّمت شرب الخمر مطلقاً ، واستجمعت كثيراً من الأدلة ،  
وهاهي ذه « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ

مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ  
أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ،  
وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ » .  
وهذه هي الخطوة الأخيرة في المنع .

فانظر إلى ضروب السياسة والحكمة في التشريع كيف سارت؟  
وأى سبيل اتبعت ؟ تر أنها تنزلت إلى أفق المتعلمين لتزيل من  
نفوسهم أسباب النفور ، ثم أخذت تتدرج في سبل الكمال وهمم بها  
متعاقون ، حتى وصلت بهم إلى الهداية المنشودة . ومحاكاة هذه  
الطريقة — وهي المثل الأعلى — أمنية المؤدبين ، منذ فطر الله  
لإنسان إلى يوم الدين .